المدائح النبوية ﷺ
عند البوصيري والبرعي دراسة تأصيلية وموازنة

أ. م .د. يحيى حسان
قسم اللغة العربية
كلية الآداب– جامعة تعز

ملخص البحث :

تناول البحث بالدراسة المديح النبوي ،لشاعرين برزا في العصر الوسيط ،أحدهما في أول العصر والثاني في أخره ، هما البوصيري والبرعي ،بهدف التعرف على دوافع المديح وعنا صره الموضوعية، و بنائه الفني عند كل منهما ، وأثر الفارق الزماني والمكاني في ذلك ، وقد أماط البحث اللثام عن شاعرين جمع بينهما إيمان عميق وحب لا حدود له لرسول الله صلى الله عليه وسلم شغف قلبيهما ،وأنطق لسانيهما بثناء ومديح يفيض عذوبة وجمالا ،وتأثيرا ينبع من صدق العاطفة وإخلاص الوجدان، وقد كان لاختلاف البيئة السياسية والاجتماعية، والموقع الجغرافي لبلد كل منهما أثره في الموضوع الشعري وجودا وعدما ،وضيقا وسعة ،عند كل من الشاعرين ، كما كان لتعدد جوانب العظمة في شخصية الممدوح صلى الله عليه وسلم أثرها في اختلاف الزوايا التي انطلقا منها لمدحه .

المقدمة:

لقد مثل الوطنِ العربي جسدا واحد ا تتآلف أجزاؤه وتتكامل، ويقوي بعضها بعضا تجمع بين أبنائه وحدة الدين والجنس واللغة ، ووحدة الأعراف والعادات والآداب .

وإذا كان فن المديح النبوي من الفنون التي تناولها عدد من الدارسين منهم :محمود علي مكي في كتابه المدائح النبوية ،والدكتور زكي مبارك في كتابه: المدائح النبوية في الأدب العربي ،والدكتور محمود سالم في كتابه :المدائح النبوية حتى العصر المملوكي ، والدكتور صلاح عيد في كتابه :مديح الرسول صلى الله عليه وسلم في فجر الإسلام م، فإنّ البحث الذي بين أيدينا يتناول جزئية من هذا الأدب تتمثل في: المديح النبوي عند شاعرين–البوصيري والبرعي– في قطرين عربيين ، وفي زمنين مختلفين ،معتمدا المنهج التكاملي في دراستهما بغرض

التعرف على دوافع المديح وعنا صره الموضوعية والفنية عند كل منهما، وأثر الفارق الزماني والمكاني في ذلك.

وقد تكون البحث من تمهيد تناول الشاعرين :البوصيري، والبرعي ،تلاه ثلاثة مباحث، المبحث الأول: المديح النبوي عند البوصيري والبرعي ،المبحث الثاني : الموازنة من حيث الدوافع، والعناصر الموضوعية والتأثير، المبحث الثالث: الموازنة في البناء الفني ، ثم الخاتمة .

التمهيد :

المدح من أقدم الأغراض الشعرية التي عرفها الإنسان العربي ، من خلاله بث أحاسيسه وصور مشاعره تجاه إنسان ما احتل حيزا في وجدانه ، ونال حظا من احترامه وإعجابه ، لما يتحلى به من أخلاق وسمات ، أو لما أسداه من معروف يستوجب الشكر والتقدير والذكر بأحسن الصفات، أو لما يؤمله منه من عطايا وهبات وتلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، فالإنسان مجبول على حب من أحسن إليه وبغض من أساء إليه.

وإذا كان الممدوح يفخر بالمدح ويشرف به فإنّ الباحث هنا أمام مدح يفخر ويشرف بممدوحة ،أمام ممدوح في غنى عن مدح الشعراء ، وثناء البلغاء ، فقد أثنى عليه ربه وعظمه فقال:(و إ نك لعلى خلق عظيم) (القلم:٤) فضّله الله بالرسالة واصطفاه للقرب والمشاهدة، وختم برسالته الرسالات ، وبعثه متمما لمكارم الأخلاق ،وجمع له بين جمال الخلق وسمو الخلق،أمّ الشعراء محراب جماله، ووقف الشعر في أعتابه مذ كان في المهد صبيا ،حين أنشد عبد المطلب:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيّب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان [١]

وصحبه الشعر في مختلف مراحل حياته، وبعد رحيله ،وإلى يوم الناس هذا، قال فيه أبو طالب:

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر فعبد مناف سرّها وصميمها
وإن فخرت يوما:فإنّ محمدا هوا لمصطفى من سرّها وكريمها[١]

وقال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[٢]

ومن الشعراء الذين مد حو ه صلى الله عليه وسلم :البوصيري والبرعي

البوصيري:

١ابن هشام : السيرة النبوية:١/ ١٦٠

(٢) ابن حجر العسقلاني: الإصابة :١٤٨/٣

أما البوصيري فهو محمد بن سعيد بن حمّاد باتفاق المصادر التي ترجمت له ، أما بعد جده حمّاد فقد اختلفت المصادر وبالأخص حول جده الثاني ،هل هو عبد الله أم محسن ؟ أم تحسين ؟ فمنهم من أورده على النحو الآتي: حمّاد بن محسن بن عبد الله بن حيان بن صنهاج[٣] بن ملاك الصنهاجي [٤]ومنهم من أورده هكذا : حمّاد بن تحسين بن أبي سرور بن حيان بن عبد الله بن ملاك بن صنهاج ومنهم من أورده على النحو الآتي : حمّاد بن عبد الله الصنهاجي ، وقد أشتهر بالبوصيري نسبة إلى بلد ة والده– بوصير [٥]– وهي بلدة في صعيد مصر كانت أسرته قد انتقلت إليها من المغرب بصحبة جده مسعود الذي بقي فيها إلى أن توفي ، وعاش فيها أحفاده من بعده، فشاعرنا مصري المولد والنشأة والحياة والوفاة ، وإذا كان المقريزي قد شكك في سنة مولد الشاعر، فأورد أنهافي "سنة ست وقيل سنة عشر وقيل سبع وستمائة[٦] " ، فإن أكثر الباحثين ذكروا أن مولده كان يوم الثلاثاء ، أول شوال ٦٠٨هـ ، منهم ابن تغرى بردى[٧]والإمام السيوطي وابن حجر الهيتمي .

كذلك اختلف الباحثون في تحديد سنة وفاته ،فقيل سنة٦٩٤ هـ ، أو سنة ٦٩٥ هـ [٨] ،وقيل سنة٦٩٦هـ، أو سنة ٦٩٧هـ [٩]، وقيل بل سنة ٦٨١ هـ [١٠]. ويرجح د/ شوقي ضيف أن مولده سنة ٦٠٨هـ ، ووفاته سنة ٦٩٨ هـ [١١] ولعله الصواب .

موقعه:

أما موقع البوصيري وأثره في الأدب العربي سواء في عصره أوفي العصور التي تليه، فيتجلى من خلال الاستقراء للمصادر الأدبية والتاريخية ،ويمكن القول إن موقعه ذلك أتى من خلال مديحه لرسول الله ﷺ وإذا كان البوصيري قد اشتهر بشعره وعرف بالبوصيري الشاعر أكثر مما عرف بالبوصيري العالم أو الفقيه فإنه ظل مغمورا ردحا من الزمن حتى ارتقى سلم المديح النبوي ،مع ذ لك فشعر البوصيري لا يقل عن شعر غيره من معاصريه من حيث جودته ، إن لم يفقهم ، يقول الإمام السيوطي عنه :الشريف البوصيري صاحب البردة...برع في النظم .قال فيه الحافظ فتح الدين بن سيد

الناس :هو أحسن الناس شعرا من الجزار والوراق[٧] "وإذا كان البوصيري لم يعرف إلا بالشعر فإنه

(٣) انظر الصفدي : الوافي بالوفيات : ٦٧،١٠٥/٣

(٤) المقريزي : المقفي: ٢٥٠/١

(٥) الزركلي: الاعلام : ١٣٩/٦

(٦) المقفي :٢٥٠/١

(٧) انظر الامام السيوطي : حسن المحاضرة : ٥٧٠/١

(٨) انظر : المصدر نفسه: ٥٧٠/١

(٩) انظر بن تغري برد ي :الدليل الشافي على المنهل الصافي :٦٢٢/٢

(١٠) انظر الوافي بالوفيات :١٠٥

(١١) انظر د/ شوقي ضيف :عصر الدول والإمارات : ٣٦١

يمكن القول:إن المدائح النبوية هي واسطة عقد ذلك الشعر وقلادة نحره، و إنه ما كان ليصل إلى هذه الشهرة وتلك المكانة في النفوس لولا تيممه وجهة الطلعة الأحمدية والذات الشريفة المحمدية ﷺ في عصر امتلأ بالبلغاء وزخر بالشعراء أمثال: ابن الفارض وبهاء الدين زهير ،وابن النبيه، وابن الحسين الجزار، وسراج الدين الوراق ،وابن نباته ،وغيرهم.

البرعي اسمه ونسبه:

هو عبد الرحيم في المصادر التي أمكن البحث فيها عدا البدر الطالع للإمام الشوكاني، فقد ترجم للبرعي تحت اسم :عبد الرحمن، فقال:" الشيخ العالم الشاعر البليغ الشهير عبد الرحمن بن علي البرعي[١٢]أما اسم الأب فهناك اختلاف في المصادر حوله، هل هو علي أم أحمد؟ فهو علي عند كل من البريهي، والشوكاني، والدكتور شوقي ضيف ،وجرادة. وهو أحمد عن كل من :مرتضى الزبيدي والوشلي والزركلي ،وبروكلمان ،وعمر فروخ[١٣] ولعل الرأي ا لأخير هو الصواب لا تفاقه مع ما أورده الشاعر نفسه في ديوانه في أكثر من قصيدة ، يقول من قصيدة مدح بهاأحد وجهاء عصره:

وهاك من الدر النضيد غرائبا مؤلفها عبد الرحيم بن أحمد[١٤]

وإذا ثبت عند الزركلي وعمر فروخ أن عليا هو اسم جده فإن الوشلي صاحب كتاب (نشر الثناء الحسن) قد استبعد هذا الاسم من نسب البرعي في أطول سلسلة نسب للبرعي أمكن الوقوف عليها ،وبإضافة اسم علي إلى سلسلة النسب هذه يمكن الجمع بينها وبين ما سبق فيكون أسمه :عبد الرحيم بن أحمد بن علي بن عبد الرحيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل بن مسلم بن قيس بن الحارث بن البرعي المهاجري[١٥] ، وكثيرا ما يجد الباحث كلمة المهاجري عقب اسمه في كتب المصادر

وهي نسبة إلى قبيلته، إحدى قبائل جبل برع، وكذلك انتسب الى برع ولقب بالبرعي وأطلق ذلك عليه وأصبح يعرف به ؛ فإذا قيل البرعي انصرف الذهن إليه – وبرع "جبل عظيم يقع شرقي مدينة الحديدة على بعد ٦٠كم ؛وارتفاعه ٢٤٠٠متر ا "؛وتقع فيه النيابتين[١٦] قرية الشاعر–.

مولده ووفاته:

لم يرد في المصادر المتاحة ذكر لمولده ،ولعل ذلك يعود إلى أنه ولد في أسرة مغمورة،أو ربما كانت أسرته من العامة الذين لا يهتمون بكتابة التاريخ ، وربما كان مسطورا في

(١٢) الشوكاني : البد رالطا لع : ١٢٠/٢

(١٣) انظر مرتضى الزبيدي : تا ج العروس : ٢٧٣/٥ ، بروكلمان : ٥٩/٥، عمر فروخ : ٨٢١/٣، الأعلا م : ٣٤٣/٣

(١٤) ديوا ن البرعي : ١٥٧

(١٥) البدر الطالع : ١٢٠/٢

(١٦) انظر ابراهيم المقحفي: معجم البلدان والقبائل اليمنية : ١٧٨١/٢

مصدر ما ؛ولكن ضياع الكثير من المصادر وحرص أصحابها على إخفائها حتى اندثرت مع الزمن كان له دوره في اختفاء تاريخ مولده

ومن الباحثين المتأخرين من اجتهد في تحد يد مولده ووفاته فأورد أن مولده في القرن السابع ووفاته سنة ٨٠٣هـ وأنه عاش مائة وثلاثين سنة [١٧] إلا أن هذا الادعاء لم يوثّق بما يؤكد صحته .

أما تاريخ وفاة البرعي فلا يخلو من ذكره مصدر، غير أن هذه المصادر كما اختلفت حول الفترة التي عاش فيها اختلفت حول تاريخ وفاته ، فإذا كان البريهي وكذلك الشوكاني [١٨] قد أوردا أن وفاته سنة ٨٠٣هـ وتابعهما د/شوقي ضيف ، فإن بروكلمان[١٩] ذكر أنه عاش في القرن الخامس الهجري ،وذكر نيكلسون أنه من شعراء القرن الثاني عشر الميلادي، غير أن د/شوقي ضيف خطأهما

قائلا :"توفي سنة ٨٠٣هـ_١٤٠١ م وخطأ ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجري ؛وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثاني عشر الميلادي "[٢٠] ومن الباحثين من يذهب إلى أنه من شعراء القرن العاشر[٢١]،وإذا كان الوشلي قد ذكر أن وفاته كانت بعد ثلاثين وثمانمائة

فأنه يمكن القول: أن ما ذكره الوشلي هو الأرجح والأقرب إلي الصواب ،يؤكد ذلك الرجوع إلي الشاعر نفسه والنظر في ديوانه، فمن خلال الاستقراء لشعره نجد أنه مدح بعضا من وجهاء النصف الأول من القرن التاسع الهجري ،منهم قاضي القضاة احمد بن أبي بكر الرداد الذي تولي القضاء سنة ٨١٧هـ وتوفي سنة ٨٢١هـ ،والذي كان قد سجن عددا من الفقهاء بعد توليه القضاء، فقصده البرعي متوسلا بالمديح رجاء خلاصهم، بقصيدة مطلعها:

دم المحب على الأطلال مطلول وسيف سحر عيون العين مسلول

ويقول فيها :

وارحم مساكين في السجن استمر بهم دهر مضى وغريم الدين ممطول [٢٢]

ومن خلال هذا يمكن تأكيد ما سبق من ترجيح رأي الوشلي،؛ وموافقته في قوله: إن وفاة الشاعر كانت بعد ثلاثين وثمانمائة .

(١٧)انظر جواد المرابط : البرعي اليمني: ٣١

(١٨) انظر : البدر الطالع : ١٢٠/٢ ، عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهي : طبقات صلحاء اليمن : ٤٣

(١٩) بروكلمان :٥٩/٥

(٢٠) عصر الدول والامارات :١٩٥

(٢١) انظر محمد عبد المنعم خفاجي : الادب في التراث الصوفي :٢٤١

(٢٢) ديوان البرعي : ١٣٣

موقعه:

إذا كان البرعي قد بلغ شأوا كبيرا في العلم، واشتغل بالتعليم ونشر العلم في علم فأنه قد تتلمذ لأستاذه الشيخ عمر العرابي التصوف ، وسلك الطريقة القادرية ، إلى جانب انتشار شعر البرعي في الأفاق ،قصده الطلاب من جميع الجهات اليمانية لطلب العلم في مختلف العلوم الشرعية ؛إذ مثل في عصره علما شامخا من أعلام العلم والأدب ،وهذا ما يثبته ويؤكده الاستقراء في ديوانه حيث امتلك القدرة على تطويع اللغة والتصرف بضروب الكلام مع بلاغة العبارة وحسن الإشارة ،إلى جانب ما يلاحظ في الديوان من الاقتباس والتضمين والمصطلحات مما يوحي بسعة اطلاعه وطول باعه في مختلف العلوم .

كذلك يجد الباحث أن المصادر التاريخية والأدبية التي ترجمت للشاعر أومأت إليه بالتبجيل والتقدير وأشارت إليه بالعلم والفضل، ووصفت شعره بالجودة لاسيما في مديح المصطفى(ﷺ)،ويكفي أن نذكر من ذلك ترجمة البريهي له،حيث قال عنه:"الفقيه العالم الفاضل عفيف الدين عبد الرحيم بن علي المهاجري نفع الله به بلده النيابتين...قرأ الفقه والنحو على جماعة من أئمة وقته."[٢٣]وكرر هذه الترجمة صاحب ملحق البدر الطالع[٢٤].ومع ذلك فإن الشعر قد غلب عليه وعرف به وورد ت ترجمته ضمن الشعراء في كثير من المصادر والمراجع، يقول صاحب تاج العروس: "الشاعر المفلق عبد الرحيم بن أحمد البرعي"[٢٥]،ويقول د/شوقي ضيف :"شاعر صوفي سني يمني"[٢٦]،ويقول د/عمر فروخ:"البرعي شاعر وجداني مكثر"[٢٧]،ويقول محمد سعيد جرادة :"لعل القرن التاسع للهجرة لم يظفر بشاعر يمني سار شعره واشتهر ذكره كالشاعر الصوفي المشهور عبد الرحمن بن علي البرعي."[٢٨]

ومن المعلوم أن الزمان والمكان الذي عاش فيه الشاعر مليء بالعلماء مزدحم بالشعراء ،ولولا قوة موهبته الإبداعية وفحولته الشعرية لما كان له موقع قدم بين أقرانه من الشعراء ولما تمكن من الظهور والبروز ، فهناك الكثيرمن الشعراء المعاصرين له اختفت أسماؤهم واندرست دواوينهم، ولم يعد لها وجود سوى أسمائها تتردد في بعض المصادر التاريخية والأدبية ،ولا شك أن لتوجه الشاعر تلقاء الذات الإلهية وقصده بأكثر مديحه الحضرة المصطفويه مع قوة العاطفة وصدق التوجه أبلغ الأثر في شهرة الشاعر وإقبال الكثيرين على هذا الشعر ،

(٢٣) طبقات صلحاء اليمن : ٤٣

(٢٤) محمد بن محمد زيارة : ملحق البدر الطالع : ١٢٠

(٢٥) تاج العروس :٣٧٣/٥

(٢٦) عصر الدول والمارات : ١٩٥

(٢٧) د/ عمر فروخ : تاريخ الادب العربي :٨٢١/٣

(٢٨) المصدر نفسه : ٨٢١/٣

وانتشاره بين الخاص والعام وترد يد الألسنة له في الأندية والمجالس ولا سيما مجالس الذكر حتى يومنا هذا .

المبحث الأول:

المديح النبوي عند البوصيري والبرعي :

١- المديح النبوي عند البوصيري:

إذا كان البوصيري قد برز في عصره شاعرا فإن أ برز أغراضه هو المديح النبوي ،وهو الغرض الذي كان له الدور الأكبر في إبرازه على بساط الشهرة بعد أن كان مغمورا رغم نظمه القريض ردحا من الزمن ،فلما التقى الإمام الشاذ لي وتلميذه المرسي وسلك طريقهما في مداومة الذكر وصدق التوجه مع المحبة الخالصة لله ورسوله ﷺ أشرق فؤاده بأنوار محبة المصطفي ﷺ ، واتجه إلى مديح المصطفى ﷺ ، يصحبه الندم على ما سلف من عمره وما نظمه من قريض في سوى رسول الله ﷺ ، ويعتبر هذا التوجه نقطة تحول في حياة البوصيري وأدبه.

وقد بلغ عدد القصائد التي أنشدها في مدح المصطفى ﷺأربع عشرة قصيدة منها المطولة التي تزيد على خمسمائة بيت ومنها القصيرة التي لا تتعدى أن تكون مقطوعة، قسم من هذا المديح أنشده قبل الحج، وقسم أثناء الحج، وقسم بعد الحج. يقول د/مخيمر صالح :"وقد ذهب محقق الديوان

إلى أن أول قصيدة في المديح النبوي قالها البوصيري عام ٦٥٤هـ[٢٩] ، وبالرجوع إلى الديوان المحقق نجد أن محقق الديوان يؤكد أن البوصيري لم يذهب إلى الحجاز قبل سنة ٦٥٤ هـ وإذا كان محقق الديوان قد أكد ذلك واستدل بالقصيدة التي أ نشدها في مديح رسول الله ﷺ هذا العام عندما احترق الحرم المدني [٣٠] ، وأعرب عن شوقه وحنينه إلى قرب رسول الله ﷺ وزيارته ، فإن هذه القصيدة يستشف منها أنها مفتاح مديحه النبوي ، فمن خلالها يرفع اعتذاره لحضرة المصطفىﷺ نادما على ما فات من مديحه في غير رسول الله ﷺ ، ويبدي عزمه على توجهه بمدائحه وجهة المصطفى ﷺ دون غيره ، فمدحه لغير رسول الله ﷺ ضلال وضياع يسوؤه، وهو باطل من القول لا يعتدّ به ، يقول :"

إليك رسول الله عذري فإنني بحبك في قولي ألين وأشتد

فإن ضاع قولي في سواك ضلالة فما أنا بالماضي من القول أعتدّ

(٢٩) مقدمة ديوان البوصيري : ٢٥

(٣٠) نفس المصدر :٢٥

وما امتدلي طرف ولا لان جانبّ لغيرك إلاساءني اللين والمدّ
أشغل عن ريحانتيك قريحتي بشيح ورند لانما الشيح والرند[٣١]

وأعرب عن شوقه وحنينه إلى قرب رسول الله ﷺ وزيارته :

ولا هيجت شوقي ظباء بوجرة ولا بعثت وصفي نقانقها الربد
وإني لأرجو أن يقربني إلى جنابك إرقال الركائب والوخد[٣٢]

ويلاحظ في قصائده التي سبقت الحج وزيارة المصطفى ﷺ أنها صادرة عن فؤاد يمتلئ وجدا وشوقا إلى رسول الله ﷺ.فلا ينشد قصيدة في مدح رسول الله ﷺ في هذه الفترة إلا صور فيها وجده وتشوقه وتشوق روحه وتلهفها إلى زيارة المصطفى ﷺ ، والوقوف في تلك البقاع الطاهرة، كما في القصيدة السابقة ، وكما في القصيدة الآتية التي تتجلى من خلالها معاناة الشاعر وعزمه الأكيد على قطع حبال التسويف، والتغلب على العوائق التي تحول بينه وبين مراده :

تالله يثني القلب عنه ما ثنى خوف المنية عامرا وسلولا
أيضن عنه بماله وبنفسه صب يرى لهما الفوات حصولا
فلأقطعن حبال تسويفي التي منعت سواي إلى حماه وصولا
ولأمنعن من العيون منامها ولأجعلن لها السهاد خليلا
ولأرمين له الفجاج بضمر كالنبل سبقا والقسي نحولا
حتى أضم بطيبة الشمل الذي أ نضى إليها العرمس الشمليلا[٣٣]

وها هو في قصيدة أخرى يقدم اعتذاره إلى رسول الله ﷺ ، ويبوح بمواجده وأشواقه إلى رسول ﷺ قائلا:

فاقبل رسول الله عذر مقصر هو إن قبلت بمدحك الممدوح
في كل واد من صفا تك هائم وبكل بحر من نداك سبوح[٣٤]

وإذا كانت القصائد التي أنشد ها أثناء سيره تصور مدى أشواقه وتلهفه إلى ساعة اللقاء ،فهذه عيسه تسير مسرعة لا تأبه لشيء ،دميت أخفافها من سرعة السير في السهول والحزون ،وقد هجرت الطعام ،ونسيت الماء والعشب ،وهو يخاطب الحادي طالباً منه أن يسرع بها – فالسرعة علاجها حيث طغى الشوق وتجاوز الحد وأصبح جنونا – قائلاً:

سارت العيس يرجعن الحنينا ويجاذ بن من الشوق البرينا

(٣١) ديوان البوصيري :١١٦
المصدر نفسه :١١٧
(٣٣) ديوان البوصيري :٢١٩
(٣٤) المصدر نفسه :١٠٦

داميات من حفى أخفافها تقطع البين سهولا وحزونا
قلت للحادي أعذ أشواقها بالسرى إنّ من الشوق جنونا
آه من يوم به أبكي دما إنّ للعيس ولي فيه شؤونا[٣٥]

فان القصائد التي أنشدها عند وصوله توقفنا على حقيقة الشاعر الإيمانية، فعند وصوله المسجد النبوي ووقوفه أما مالحجرة الشريفة تجلت عظمة الشاعر من خلال عظمة إيمانه بربه وخوفه من خالقه واستعداده ليوم المعاد حتى كأنه يراه ،وقد طغت تلك المشاعر على فرحة اللقاء ،واعترف الشاعر بذنوبه وأقر بتقصيره مغتنما الفرصة معطياً الموقف حقه ،فهاهنا تتحات الذنوب وتتساقط الخطايا وتقال العثرات. فيقول مخاطبا المصطفى ﷺ:

وافاك بالذ نب العظيم المذ نب خجلا يعنف نفسه ويؤنب
لم لا يشوب دموعه بدمائه ذوشيبة عوراتها ما تخضب
لعبت به الدنيا ولولا جهله ما كان في الدنيا يخوض ويلعب
وقفت بجاه المصطفى أماله فكأنه بذنوبه يتقرب
وبدا له أن الوقوف ببابه باب لغفران الذنوب مجرب
صلى عليه الله إن مطامعي في جوده قد غار منها أشعب [٣٦]

أما بعد عود ته من الحج فإنه وإن كان قد أروى ظمأه وشفى أوامه بوصوله إلى حضرة المصطفى ﷺ ووقوفه أمام المواجهة الشريفة ،وزيارة البقاع الطاهره إلا أن جذوة المحبة لم تزد إلا اتقاداً حيث أثمرت تلك الزيارة إيمانا على إيمان ويقينا على يقين ومحبة على محبة ، فأند فع يمدح رسول الله ﷺ بعاطفة صادقه جياشة.

ويمكن القول : إنه في هذه ا لمرحلة بلغ الذروة في مديحه النبوي وأنشد أبرز مدائحه النبوية ،بل أبرز مديح نبوي بعد (بانت سعاد) فأيقظ الشعراء من غفوتهم وذكرهم بعظمة نبيهم وشمائل منقذهم وأشعل جذوة المديح النبوي من جديد ،وذلك حين أنشد قصيد تيه الشهيرتين :الهمزية في نحو أربعمائة وخمسين بيتا ، وسماها : (أم القرى في مدح خير الورى)،والميمية المشهورة باسم :(البردة) في مائة وستين بيتاً ،وكان لهما أثرهما البالغ في الأدب العربي إذا نتشرتا انتشار النار في الهشيم بين الخاصة والعامة ،وأقبل الشعراء عليهما تخميسا وتشطيراً وشرحا وتعليقا ،ولم تنل قصيدة في مديح الرسول ﷺ حظوة هاتين القصدتين"[٣٧].

(٣٥) المصدر نفسه: ٢٥٧
(٣٦) ديوان البوصيري :٨٩
(٣٧) عصر الدول والامارات : ١٨٨

وقد احتوت قصيدة المديح النبوي عند البوصيري على ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودارت حول شخصيته صلى الله عليه وسلم منذ مولده بل منذ أن كان في ضمائر الكون تختار له الأمهات والآباء حتى برز إلى عالم الشهادة إلى أن لقي ربه ،فتناولت مولده ونشأته وبعثته ومعراجه وهجرته ، وهو في كل ذلك يؤكد على تميز المصطفى صلى الله عليه وسلم وأفضليته على سائر الرسل والأنبياء ،ويبرز خصائصه وسماته وما وهبه الله من صفات الجمال وحسن الاخلاق وسمات الكمال ،وما أيده به من معجزات باهرات وآيات بينات ، ويطغى على كل ذلك طابع اليقين الصادق والمحبة الخالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول مخا طبا رسول الله:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ماطا ولتها سماء
لم يساووك في علاك وقدحال سنا منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيب و منها لآدم الأسماء
لم تزل في ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء[٣٨]

وإذا كان عصر البوصيري قد ابتلى بالغزوات المغولية والصليبية ،وكان المسلمون بحاجة إلى العودة إلى ماضيهم وانتصاراتهم في صدر الإسلام ،وتذكر تضحيات المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه في سبيل نشر الإسلام حتى تثبت أفئدتهم ،وتثبت أقدامهم في مواجهة أعدائهم ،فإن المديح النبوي في هذا العصر كان له دور في ذلك ، فنجده يتحدث عن غزوات المصطفى صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وعن عزة المسلمين وذلة المشركين ،وهو بذلك يشعل الحماسة في قلوب معاصريه من العرب والمسلمين ويقد م من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام نموذجا لهم كي

يقتد وا برسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد ،وعدم الذل والخضوع لأعدائهم ، يقول :

جاهد ت في الله أبطال الضلال إلى أن ظل للشرك بالتوحيد تبطيل
شكا حسامك ماتشكو جموعهم ففيه منها وفيها منه تفليل
لله يوم حنين حين كان به كساعة البعث تهويل وتطويل
ويوم أقبلت الأحزاب وانهزمت وكم خبا لهب بالشرك مشغول
جاء وا بأسلحة لم تحم حاملها إنا لكماة إذا لم ينصروا ميل [٣٩]

٢- المديح النبوي عند البرعي:

شعر البرعي ينقسم إلى قسمين ، القسم الأول :شعر وجدا ني د يني ،يجمع طاقات روحية من الشعر الصوفي والابتهالات والتضرعات والمواجد الإلهية، وإلى جانب ذالك مديح بعض العلماء والصالحين من معاصريه والسا بقين ، أما القسم الثاني : فهو موضوع هذا البحث ، وهو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاستغاثة والتوسل به، وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته ، وهو مديح وجداني نابع من صميم الفؤاد صادر عن عاطفة جياشة صادقة في إيمانها وفي حبها لله ورسوله"مديح من نوع خاص كله شغف وحب وتوله وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول ﷺوفضائله وشيمه الكريمة ،ولاتخلو مدحة من التوسل والتضرع ليكون له شفيعا عند ربه "(٤٠)

فقصيدة المديح النبوي عند البوصيري احتوت على الاستغاثة والتوسل كما احتوت على بيان فضائل المصطفى ﷺ وذكر مولده ومعراجه وكثير من معجزاته وصفاته الخلقية والخلقية .وما أكرمه الله به في الدنيا من النصر وإعلاء كلمة الحق ومحو الكفر وإذلال المشركين ، وفي الآخرة من علو الدرجة والشفاعة والمقام المحمود ، والشاعر يصور من خلال مديحه حبه وأشواقه، ويحن إلى زيارة المصطفى ﷺ، ويردد أسماء البقاع، ويذكر المنازل والديار ، ويمكن القول إن التوسل بالمصطفى ﷺ بقصد الشفاعة في أمور الدنيا والآخرة احتل حيزا كبيرا في المديح النبوي عند البرعي ، وهذا يعكس نفسية الشاعر التي احتوتها عظمة رسول الله ﷺ وملأت وجدان الشاعر فتلاشت لديه عظمة الدنيا وزخرفها ، وأصبح المصطفى ﷺهو ممدوحه وملجأه دون ملوك الدنيا ووجهائها ،وها هو يفصح عن ذلك قائلا :

فكيف تراني أرتجي نجح مطلب إذا لم يكن بالهاشمي توسلي
جعلت عريض الجاه في كل حاد ث ثمالي ومأمولي ومالي وموئلي
أرد به كيد العدو إذا اعتدى وألقى به سود الخطوب فتنجلي
وأورد آمالي مناهل بره وأنزل آمالي بأجود منزل
هو الشافع المقبول في الحشر للورى إذا عمل الإنسان لم يتقبل (٣٨)

وإذا كان رسول الله ﷺهو أفضل الخلق وأعلاهم قدراً، وأرفعهم مقاماً،" فإنهﷺ أجملهم خلقاً وأكملهم خلقا، وشخصيته ﷺ كثيرة المواهب متعددة الجوانب ، لا سبيل إلى معرفة فضائله ﷺومزاياه معرفة تحيط به من كل الوجوه ،ولو اجتمع لذلك كل من عداه ،إذ لا يعرف حقيقته ولا يحيط بفضائله عليه الصلاة والسلام – إلا الله ،ومازال مهرة العلماء يغوصون في لجج بحورها الزواخر فيستخرجون منها روائع اللآلئ وبدائع الجواهر ، فمنهم من نشرها على بساط البسيطة

٣٨)ديوان البرعي:٢٠٣

فاستغنى بها أهل المعرفة والإيمان ،ومنهم من نظمها عقوداً زين بها جيد الزمان "[٣٩] ومنهم البرعي الذي رنا بصره إلى جمال الحضرة المحمدية ،فانطلق لسانه في ذكر فضائلها وتعداد محاسنها الخلقية والخلقيه.وهاهو يشدو قائلاً :

قمر تعلقت القلوب بحبه فكأنه في كل قلب خيما(٤٠)

وقوله :

بأبلج من فرعي لؤى بن غالب ملاذ غياث مستغاث مؤمل

بشير نذير مشفق متعطف رؤوف رحيم شاهد متوكل[٤١]

نبي زكي أريحي مهذب شريف منيف سربه غير مهمل [٤١]

المبحث الثاني:

موازنة من حيث الدوافع والعناصر الموضوعية والتأثير :

١- الدوافع :

إذا كانت دوا فع الشعراء إلى المديح تختلف ، فمنهم من تدفعه الرغبة ، ومنهم من تدفعه الرهبة ومنهم من يدفعه حب الأخلاق الكريمة وجميل الخلال ،ومنهم من يدفعه الإحسان والمكافأة على إسداء المعروف يقول علي بن الجهم :

وما الشعر مما أستظل بظله ولا زاد ني قدراً ولا حط من قدري

ولكن إحسان الخليفة جعفر دعاني إلى ما قلت فيه من الشعر[٤٢]

فإن شعراء المديح النبوي يلتقون حول شيء واحد هو رسول ﷺ ،ويجمعهم شيء واحد هو الإيمان به ومحبته ﷺ ،وهم يستمدون من المصدر الأول وهو القرآن الكريم والسنة المطهرة ،والسيرة النبوية العطرة وكتب التاريخ والمغازي والسير والأخبار ،وإذا كان الإنسان مجبولاً على عشق الجمال وحب الصفات العظيمة والأخلاق الكريمة ، وكان الله تعالى قد جمع في المصطفى ﷺمن عظيم الخلال ومن صفات الكمال وسمات الجمال مالا يحصى ، ومنحه من المواهب والآيات مايجل أن يستقصى ،فإن تلك المواهب والمزايا وجوانب العظمة المتعددة في هذه الشخصية الإنسانية التي لم تعرف لها البشرية مثيلا على تعاقب الأزمان قد أدهشت الشعراء وحيرت البلغاء وفتحت باباً واسعاً للقول ،وهيهات أن يلم الشعراء بمناقبه أو يحيط البلغاء بمحاسنه

٣٩)يوسف النبهاني:الأنوار المحمدية(بتصرف):٣

٤٠)ديوان البرعي:١٦٣

٤١)المصدر نفسه:٢٠٣

٤٢)العمدة١/٤٢

لذلك اختلف الشعراء عن بعضهم في الزوايا التي انطلقوا منها لمدحهﷺ ،وفي الجوانب التي تناولوها في شخصية الرسول ﷺ،فهذا يكثر من ذكر المعجزات ،وذاك يتوسط أو يقل ،وهناك من يبرز جانباً ويقصر في آخر،وهناك العكس ،وكذلك تختلف العواطف والمواجيد ويرجع ذلك التفاوت إلى عوامل عدة منها ثقافة الشاعر وطول باعه في الشعر ،وبيئة الشاعر الطبيعية والاجتماعية والسياسية ،ومدى حبه للمصطفى صلى الله عليه وسلم .

أ- الحنين إلى رسول الله وانتصاراته :

فإذا نظرنا إلى البوصيري نجد أنه عاش في مجتمع أوسع وبيئة منفتحة الأجناس والأديان وأوضاع سياسية مضطربة ، وبلدة معرضة للغزوات المغولية والهجمات الصليبية المباشرة والمحاولات المتكررة للنيل من مقام رسول الله ﷺ من قبل الديانات الأخرى، لذا نجد رد الفعل وانعكاس تلك الأحداث والأجواء عند الشاعر في شحذ الهمم والد فع إلى الجهاد بتذكير المسلمين برسولﷺوجهاده هو وأصحابه الكرام،وصموده في وجه الشرك وأهله حتى ذ ل الشرك وارتفعت راية الحق ،وهاهو يعرب عن حبه لرسول ﷺ، متمنياً أنه عاش في ذلك الزمن ليقا تل مع رسول الله ﷺ، مبرزاً أجواء المعركة وأدواتها في تصوير متحرك بديع وتفاعل صادق :

ياليتني من معشر شهد وا الوغى	معه زمانا والكفاح طويلا
فأقوم عنه بمقول وبصارم	أبد ا قؤولا في رضاه فعولا
في موقف غشي اللحاظ فلا يرى	لحظ به إلا قناة ميلا
فرشفت ثغر الموت فيه أشنبا	ولثمت خد المشرفي أسيلا
والخيل تسبح في الدماء وتتقي	أيد ي الكماة من النّجيع وحولا
فاطرب إذا غنى الحديد فخير ما	سمع المشوق إلى النزال صليلا(٤٣)

إنه يذكر بجهاد رسول الله ﷺ، ويشوق إلى الجهاد والوقوف في وجه المغول والصليبيين، والتصدي لهم بقوة وحماس ، اقتداء برسول الله ﷺ ،أشار إلى موقف الشاعر هذا د/ شوقي ضيف حين قال : " وهو في تضاعيف ذلك المديح النبوي كله يجسّد جهاد الرسول والصحابة لأعداء الإسلام من المشركين واليهود حتى يد لع الحمية في قلوب معا صريه لسحق حملة الصليب سحقاً لا يبقى منهم ولا يذر وتلقف منه المنشد ون على حلقات الذكر – لا في بيئة طريقته الشاذ لية وحدها ، بل في جميع الطرق الصوفية بمصر ـ هذه القصيدة وأخذ وا ينشدونها مترنمين بها حتى يستحيل المصريون شواظا آدميًّا يأتي على الصليبيين والتتار جميعاً " (٤٤). أما البرعي فقد عاش في جنوب شبه الجزيرة العربية في منطقة نائية عن الحروب الصليبية

٤٣)ديوان البوصيري:٢١٨

٤٤)د/شوقي ضيف:الشعروطوابعه الشعبية:١٧٩

المباشرة زماناً ومكاناً ، ولم يختلط بالمسيحيين ، وإن كان اليمن لا يخلو من اليهود آنذاك إلا أنهم أقليات منعزلة لا تجرؤ على المساس بالدين ، أو النيل من رسول الله ﷺ. ومع الجزم بتأثر البرعي بالبوصيري يمكن القول : إن الوطن العربي يمثل جسد ا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، فالمعاناة واحدة ، لذا فإن شعر البرعي وإن لم يخل من الروح الجهادية ومن ذكر غزوات رسول الله ﷺ وحروبه ، والإشادة بمواقفه الجهادية وانتصاراته إلا أنه لم يصل إلى مستوى شعر البوصيري في هذا الجانب

محاولات النيل من قدر رسول الله ﷺ:

كان للمحاولات الصليبية واليهود ية المتكررة للنيل من قدر رسول الله ﷺوالمساس بجنابه الشريف ،ومحاولة التحقير من شأنه ﷺ، حقداً ونكاية بالمسلمين دورها في د فع البوصيري إلى التصدي لهم ورد دعاويهم وأكاذيبهم ،ومقارعتهم بالحجة والد ليل ،يقول :

إن أنكرته النصارى واليهود على ما بينت منه توراة وإنجيل

فقد تكرر منهم في جحودهم للكفر كفر وللتجهيل تجهيل[٤٥]

كذلك كان لتلك المحاولات اليائسة من قبل أعداء الإسلام من اليهود والنصارى للنيل من رسول الله ﷺ في دفع الشاعر إلى الإكثار من ذكر علو قدر رسول الله ﷺ وأفضليته على سائر الرسل والأنبياء ، كما سبق وكما في قوله :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ياسماء ما طاولتها سماء

لم يساووك في علاك وقدحا ل سنا منك دونهم وسناء

إنما مثلوا صفاتك للنا س كما مثل النجوم الماء[٤٦]

وهذا مانجده – أيضاً – في شعر البرعي كما في قوله:

نبى له جود ومجد مؤثل وجاه وتمكين مكين وسؤد د

فلا غيره في الفضل يخترق العلى ولا تحت ساق العرش لله يسجد[٤٧]

وقوله :

إمام المرسلين ومنتقاهم وأكثر غيمهم طلا ومزنا [٤٨]

وهو في قصيدة أخرى يذكر بعضاً من معجزات المصطفى ﷺمبرهناً بها على أفضليته ﷺ قائلاً:

وأد ناه رب العرش منه على العلا فكان كقاب القوس أو هو أقرب

٤٥)ديوان البوصيري:٢٢٦

٤٦)ديوان البوصيري:

٤٧)ديوان البرعي:٨٧

٤٨)المصدرنفسه:٢٣٨

وآتاه في الحشر الشفاعة واللوا على الرسل والحوض الذي ليس ينضب

فآياته بالمعجزات نواطق ورايته بالفتح والنصر تنصب [٤٩]

فالشاعران يلتقيان في هذا الجانب وإن احتلّت المفاضلة حيزاً في ديوان كل منهما إلا أنّ ذلك يعتبر قليلاً بالنسبة لشعر البرعي إذا قارنّا بين الشاعرين من حيث محصول الشاعرين من المديح النبوي ،فلم تزد مدائح البوصيري على أربع عشرة قصيدة في حين بلغت مدائح البرعي ستاً وأربعين قصيدة . وهناك أمران تجدر الإشارة إليهما :

الأول – أنه لا شك أن البرعي قرأ لسابقيه من شعراء المديح النبوي ومنهم البوصري .

الثاني – أن هذه الأفضلية أمر معلوم من الدين بالضرورة ثابتة في الشرع ،يؤمن بها كل مسلم فد ندنة البرعي حولها وتكرارها في شعره يأتي بدا فع الحب لرسول الله ﷺ ويدل على عمق المشاعر الإيمانية وقوة الروابط الثقافية بين الشعراء العرب في مختلف الأقطار وعلى اختلاف الأزمان .

ج–التصوف :إذا كان للتصوف دوره في انطلاق الأرواح وشفافية القلوب وامتلائها بحب الرسول الله ﷺ، ولهج الألسن بالصلاة عليه والإكثار من ذكره وترد يد سيرته وأخباره، فإنه كان الدافع الأبرز عند الشاعرين ، وكان له دوره الأكبر في حبهما وشغفهما برسول الله ﷺوإقبالهما على مديحه وإذا كان التصوف وما يصحبه من حب لرسول الله ﷺ دافعا مشتركا عند الشاعرين ، فإن هناك أمرا دقيقا تجدر ملاحظته عند الشاعرين هو شدة المحبة والشغف برسول الله ﷺ، واستيلاء تلك المشاعر على وجدان الشاعرين وانعكاس ذلك على شعرهما تعبيرا وجدانيا أشبه بشعر العذريين ، وهاهو البوصيري يصرح بحبه مخاطبا المصطفى ﷺ قائلاً :

ها حلة بخلال منك قد رقمت ما في محاسنها للعيب تخليل

جاءت بحبي وتصديقي إليك وما حبي مشوب ولا التصديق مدخول[٥٠]

٤٩)المصدر نفسه:٢٥٢

٥٠)ديوان البوصيري:٢٣١

وقوله :

أيحسب الصبّ أنّ الحب منكتم مابين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حبا بعد ماشهدت به عليك عد ول الدمع والسّقم [٥١]

ويقول البرعي

لو ذقت كأس الهوى العذر ي ماهجعت عينا ك في جنح ليل جن مظلمه
ولا ثنيت عنان الشوق عن طلل بال عفت بيد الأنواء أرسمه
ماالحب إلا لقوم يعرفون به قد مارسوا الحب حتى هان معظمه
عذابه عندهم عذب وظلمته نور ومغرمه بالراء مغنمه
يامن أذاب فؤادي في محبته لو شئت داويت قلباً أنت مسقمه[٥٢]

وقوله :

فكم أحن حنين الثاكلات على نجد وتنجد ني بالدمع أجفاني
ما طال ليلي في الغوير ولا أوهي فؤادي هوى نعم ونعمان
الإ شغفت بخير الخلق من مضر مولى الفريقين قحطان وعدنان [٥٣]

ويتبع هذا دافع الإنشاد الصوفي الذي يتطلبه الذكر الجماعي حيث يجتمع القوم في حلقات الذكر الجهري رافعين أصواتهم بنظام وترتيب موسيقي معين ،الأمر الذي يستدعي إنشاداً مناسباً ،له خصائصه الموسيقية ،يراعى فيه الوزن الخفيف والمقاطع القصيرة .

ومن ذلك قصيدة البوصيري التي مطلعها:

الصبح بدا من طلعته والليل دجا من وفرته
فاق الرسلا فضلاً وعلا أهدى السبلا لدلالته[٥٤]

والقصيدة التي مطلعها :

محمد أشرف الأعراب والعجم محمد خير من يمشي على قدم[٥٥]

وقصيدة البرعي التي مطلعها :

بمحمد خطر المحامد يعظم وعقود تيجان القبول تنظم

---

٥١)ديوان البوصيري:٢٣٩
٥٢)ديوان البرعي:١١٥
٥٣)المصدرنفسه:٢٥
٥٤)ديوان البوصيري:١٥١
٥٥)ديوان البوصيري:٢٤٧

وله الشفاعة والمقام الأعظم يوم القلوب لدى الحناجر كظم [٥٦]

بحياتكم صلوا عليه وسلموا

وقصيدة أخرى مطلعها :

يارب صل على النبي المجتبى ما غرد ت في الأيك ساجعة الربا[٥٧]

وقصيدة أخرى مطلعها:

أعلمت من ركب البراق عتيما وتلاه جبريل الأمين نديما

حتى سما فوق السماء قدوماً ودنا فكلم ربه تكليما[٥٨]

صلوا عليه وسلموا تسليما

وفي هذا النوع من القصائد التي أنشد ت بدافع السماع ترجح كفة البرعي من حيث الكثرة ويعود ذلك إلى ماسبق ذكره من تفوقه من حيث الكمّ في المديح النبوي بصفة عامة ،وبالتالي عدة جوانب منها هذا الجانب وإذا كان كل من الشاعرين قد أنشد عدة قصا ئد بغرض الذكر والصلاة على رسول اللهﷺ وسلم فإن من القوم من لم يلتزم بقصائد معينة ،بل سخّر أغلب المديح النبوي للإنشاد الديني بما في ذلك البردة ،حيث تلقاها المنشد ون من البوصيري على حلقات الذكر – لا في بيئة طريقته الشاذلية وحدها ،بل في جميع الطرق الصوفية بمصر ، وأخذ وا ينشدونها مترنمين بها "[٥٩]

د- الخوف والرجاء :

وهناك أمر آخر يشترك فيه الشاعران هو الرغبة الصادقة في التقرب إلى الله تعال ودخول جنته والفوز بالسعادة في الدارين بمدح المصطفى ﷺ.

يقول البوصيري :

وبحب النبي فابغ رضا الله ففي حبه الرضا والحباء[٦٠]

ويقول :

بمدح المصطفى تحيا القلوب وتغتفر الخطايا والذنوب

وأرجو أن أعيش به سعيداً وألقاه وليس علي حوب[٦١]

إن الدافع هوالرغبة والطمع بفضل الله وكرمه بمغفرة الخطايا والذنوب ونيل السعادة .

٥٦)ديوان البرعي:٩٤

٥٧)المصدرنفسه:١١٠

٥٨)المصدرنفسه:١٩٧

٥٩)الشعروطوابعه الشعبية:١٧٩

٦٠)ديوان البوصيري:٧٥

٦١)المصدرنفسه:٥٣

ويقول البرعي :

وقدمت مدح الهاشمي تجارة إلى موسم الأرباح كنز الفوائد

إلى من له التنزيل بالمدح ناطق يردده التالون بين المساجد[٦٢]إنه دافع الرغبة بالتجارة الإيمانية والفوز بموسم الأرباح وكنز الفوائد ،وهو المصطفى ﷺ،فهو يتاجر مع ربه من خلال مدح المصطفى ﷺ ويذكرنا هذا بقول الله تعالى :(يأيها الذين ءامنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أ ليم)[٦٣]

ويقول من قصيدة أخرى :

مد حت رسول الله مفتخراُ به وقمت بحمد الله أنشي وأنشد

وقلت لعل الله يمحو جرائمي به وابن مسعود المقصر يسعد[٦٤]

وكذلك يتجلى دافع الخوف من غضب الله وعذابه في الدار الآخرة ورجاء الفوز برضوانه وجنته من خلال: الدعاء والتوسل بالمصطفى ﷺ.

يقول البوصيري :

خدمته بمديح أستقيل به ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً و إلا فقل يا زلّة القدم[٦٥]

والشاعر لا يريد زهرة الد نيا ،وإنما يطمع بالخلاص من أوزاره ،والنجاة من النار بشفاعة المصطفى ﷺ:

ولم أرد زهرة الد نيا التي اقتطفت يدا زهير بما أثنى على هرم

يا أكرم الرسل مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلى باسم منتقم[٦٦]

وهاهو البرعي يعرب عن خوفه من يوم المعاد يوم ينكشف الغطاء ،ويفصح أن أمله في النجاة مرتبط بجناب رسول الله ﷺ، وإذا كان محتاجاً له في الدنيا فإنه في الآخرة أحوج :

فيا شؤم حظي حين ينكشف الغطا إذا لم يكن لي من ذنوبي مخرج

وليس معي زاد ولا لي وسيلة سوى هاشمي بالبهاء متوج

ألوذ إلى ذاك الجناب فأحتمي بمن هو عند الكرب للكرب يفرج

وأدعوه في الد نيا فتقضى حوائجي وإني إليه في القيامة أحوج

---

٦٢)ديوان البرعي:٥٥

٦٣)سورة الصف الا ية:١٠

٦٤)المصدرنفسه:٨٨

٦٥)ديوان البوصيري:٢٤٨

٦٦)المصدرنفسه:٢٤٨

إذا مدح الشعراء أرباب عصرهم مدحت الذي من نوره الكون أبهج[٦٧]

ولم يقتصر الأمر على الخوف من عذاب اليوم الآخر بل كثيراً مايلجأ الشاعر إلى الدعاء والتوسل بالمصطفى ﷺإلى الله تعالى في كشف هموم الدنيا والآخرة فمدح رسول الله ﷺأمان لكل خائف في الدارين .

يقول البوصيري:

مدح النبي أمان الخائف الوجل فامدحه مرتجلاً أو غير مرتجل[٦٨]

ويقول مخاطباً رسول الله ﷺ:

قد تمسكت من ودادك بالحبـ ـل الذي استمسكت به الشفعاء

وأبى الله أن يمسني ا لسو ء بحال ولي إليك التجا ء

قد رجوناك للأمور التي أب ردها في فؤاد نا رمضاء[٦٩]

ويقول البرعي مخاطباً رسول الله ﷺ:

فإني على قربي وبعدى رفيقكم وماد حكم في كلّ نادٍ وسامر

فكن من أذى الد نيا غيا ثي وناصري وغوثي على باغ علي وغادر[٧٠]

ويقول من قصيدة أخرى مخاطباً رسول الله ﷺ:

نوالك الجم يطويني وينشرني بالمكرمات وعين اللطف ترعاني

وجاه وجهك يحميني ويمنعني من بغي ذي حسد أو شامت شاني[٧١]

وإذا كان البرعي كثيراً ما يلجأ إلى الدعاء والتوسل لكشف ضراء أو جلب سراء تتعلق بأمور الدنيا ،كما في الأبيات السابقة فإن البوصيري اتجه في دعائه وتوسله شطر ا لدار الآخرة، فجلّ دعائه وتوسله في طلب المغفرة والنجاة يوم الساهرة ، وربما كان هذا نتيجة إحساسه بالذنب والتقصير لتأخره في التوجه شطر رسول الله ﷺ والإقبال على مديحه، وندمه على ما أضاعه بعيداً عن الحضرة النبوية.

وإذا كان البرعي قد حج ولم يتمكن من الوصول إلى المدينة المنورة لزيارة الحضرة النبوية

فإن ذلك قد أوجد لديه نوعاً من الإحساس بالندم والحسرة والألم والغضب على النفس ومضاعفة

٦٧)ديوان البرعي:١٠١

٦٨)ديوان البوصيري:٢٣٣

٦٩)ديوان البوصيري:٧٣

٧٠)ديوان البرعي:٥١

٧١)المصدرنفسه:١٠٤

الشوق إلى المصطفىﷺوكان لذلك دوره في دفعه إلى تكرار تصوير آلامه من بعده عن المصطفى ﷺوأشواقه إليه ،وهاهو يخاطب المصطفى ﷺ قائلاً :

أتقبل يا محمد عذر عبد يحنّ إليك من برع اشتياقا

حججت ولم أزرك لسوء حظي وعبد السوء يعتاد الإباقا

ومن لي أن أسلم من قريب وألتثم التراب ولو فواقا (٧٢)

٢- موازنة من حيث العناصر الموضوعية :

اتحد الشاعران في الغاية، فإذا كان كل من الشاعرين اتجه بمديحه الى رسول الله ﷺ فإن شخصية هذا الرسول العظيم ﷺ كانت هي المرتكز الأساسي الذي وحّد بين الشاعرين، بما تحويه هذه الشخصية العظيمة من سمات العظمة وجوانب الرفعة والسمو الخلقي والخلقي ، وشملت هذه المدائح جوانب حياته المختلفة منذ ولاد ته حتى وفاته مع ذكر ما أيده الله به من المعجزات وأكرمه به من الآيات ويجد الباحث أ نه ليس هناك تباين في العناصر عند كل من الشاعرين، فالعناصر هي نفسها عند كل من الشاعرين ،ويرجع ذلك إلى اتحاد المصدر ، وهو الكتاب والسنّة وكتب التاريخ والمغازي والسيرة ومدائح الشعراء السابقين ،مع الإشارة إلى فضل السابق على اللاحق وإمكان قراءة البرعي للبوصيري لوجود التأثر به والاقتداء به في طرق بعض الموضوعات ، ومع ذلك هناك اختلاف بين الشاعرين يعود إلى مدى تعمقهما واستيعابهما لتلك المصادر و إلى الكم .

فالبرعي يفوق من حيث الكثرة في الموضوعات ،ويعود ذلك إلى كثرة مديحه الذي لعله بدأه في فترة مبكرة من حياته ،وإذااستقرأنا عناصر المديح عند كل من الشاعرين نجد أن كلاً من الشاعرين قد وصف المصطفىﷺ وركز في وصفه على الصفات الخلقية والسمات المعنوية أكثر كالحلم والكرم ،وأشار إلى جمال المصطفى صلى الله عليه وسلم دون التركيز على الصفات الجسد ية الحسية ،وما وجد من ذلك فهو نادر ومنه قول البوصيري :

الصبح بدا من طلعته وا لليل دجا من وفرته (٧٣)

فوصفه ﷺ ببهاء الطلعة وسواد الوفرة.

وقول البرعي :

نبي تغار الشمس من نور وجهه بهى نقى الثغر أحور أدعج(٧٤)

٧٢)ديوان البرعي:٦٨

٧٣)ديوان البوصيري:٢٧٥

٧٤)ديوان البرعي:٢٤٨

فوصفه ﷺ بنقاء الثغر والحور والدعج وهي أوصاف جسد ية، وذلك نادر في شعرهما والنادر لا حكم له .

ويمكن القول : إن الشاعرين اشتركا في التركيز على الصفات الخلقية والسمات المعنوية ،وما أكرمه الله به من عظيم الشمائل وجميل الفضائل ، مع ذكر بعض الأوصاف التي تدل على جماله وحسن خلقه وبهاء طلعته – كما سبق – وكما في قول البوصيري :

بجمال صورته تمدح آدم وبيان منطقه تشرف يعرب[٧٥]

وقول البرعي :

حوى كلّ الجمال فقال صدقاً وأحسن في الفعال وما أساء[٧٦]

وقول البوصيري :

نور فليس له ظلّ يرى وله من الغمامة أنّى سار تظليل

ولا يرى في الثّرى أثر لأخمصه إذا مشى وله في الصخرتوحيل[٧٧]

ولا شك أن الثناء بهذه الأوصاف والشمائل المعنوية هو المدح الصواب، ذلك أنه "لما كانت فضائل الناس من حيث إنهم ناس ،لا من طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ماعليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك إنما هي : العقل والشجاعة ،والعدل ،والعفة ،كان القاصد لمدح الرجال بهذا الأربع الخصال مصيباً والمادح بغيرها مخطئاً.[٧٨]

وإذا كان التوسل والاستغاثة والدعاء من العناصر التي احتوت عليها قصيدة المديح عند الشاعرين ، فإن هناك تمايزاً بينهما، حيث يلاحظ كثرتها عند البرعي وخاصة الدعاء حتى لا تكاد تخلو منه قصيدة، كما يلاحظ كثرة مخاطبة البرعي لرسول ﷺ ،كما في قوله :

واقبل خويدمك المعلم إنه فلس من التقوى قليل الزاد

وعريض وجهك يامحمد عصمتي وكفايتي وهدايتي ورشادي[٧٩]

وقوله :

فكن ظلّي غداً وشفيع ذنبي وحوضك فاسقني منه دهاقا

وآنس بالقبول غريب لفظي ونفّس عن مؤلفه الخناق[٨٠]

أما شعر البوصيري فإنه وإن لم يخل من هذا ، كما في قوله :

٧٥)ديان الوصيري:٩٠

٧٦)ديوان البرعي:١٧٧

٧٧)ديوان البوصيري:٢٢٤

٧٨)نقدالشعر:٩٦

٧٩)ديوان البرعي:١٥٥

٨٠)ديوان البرعي:١٨٥

قد تمسكت من ودادك بالحبـ ل الذي استمسكت به الشفعاء
وأبى الله أن يمسني السو ء بحال ولي إليك التجاء
قد رجوناك للأمور التي أبـ ردها في فؤادنا رمضاء[٨١]

فإن الغالب في شعره الجمع بين مخاطبة المصطفى ﷺ والتوجه إلى ربه كما في الأبيات الآتية :

قد جئت أستسقي مكارمك التي يحيا بها القلب الموات ويخصب
يا من يرجّى في القيامة حيث لا أم ترجى للنّجاة ولا أب
يا فارج الكرب العظام وواهب الـ منن الجسام إليك منك المهرب
هب لي من الغفران رب سعادة ما تستعاد ونعمة ما تسلب[٨٢]

فبعد أن خاطب المصطفى ﷺ توجه إلى ربه سائلاً سعادة دائمة ونعمة لا تسلب ويمكن القول :إن ذلك عند البرعي يعود إلى جانب نفسي مصدره الإحساس با التقصير في حق المصطفى ﷺ ، فهو يخاطبه ويبث شكواه ويلتمس من خلاله تحقيق مايصبو إليه ، فهو صاحب الجاه العظيم عند الله ، يقول :

لذ من جميع النائبات به تجد حرما علا أن تستباح محارمه
وارم الزمان بعظم جاه محمد مهما رمتك من الزمان عظائمه [٨٣]

ويقول البوصيري :

لجود المصطفى مد ت يدانا وما مد ت له أيد تخيب
شفاعته لنا ولكل عاص بقدر ذ نوبه منها ذ نوب
هو الغيث السكوب ندى وعلما جهلت وما هو الغيث السكوب[٨٤]

وإذا كان كل من الشاعرين قد سأل الله من خيرات الدنيا والآخرة وجلب المنافع ودفع المضار مع التركيز على النجاة يوم الدين ونيل شفاعة ا لمصطفى صلى الله عليه وسلم والفوز بمرافقته في جنات النعيم ، فإنه يلاحظ غلبة طابع الأنا وغياب الروح الجماعية حيث كان دعاؤهما محصوراً في دائرة الذات والأبناء والأهل والأقارب ،ولم يتجاوز ا ها إلى أوسع من ذلك ،كما في قول البوصيري:

دعاك لكل معضلة ألمّت به ولكل نائبة تنوب
وللذنب الذي ضاقت عليه به الدنيا وجانبها رحيب[٨٥]

٨١)المصدرنفسه:٩٢
٨٢) المصدرنفسه:٩٢
٨٣) ديوان الرعي:١٩٢
٨٤) ديوان البوصيري:٧٩

وإذا انتقلنا إلى البرعي، نجده يقول :

فاقبل بفضلك إذلالي ومعذرتي وقوّ ضعفي بفضل فائض رغد

وانظر إليّ بعين منك مشفقة وقم بحالي ولا طفني وجد وعد[٨٦]

وإذا كان كل من الشاعرين في الأبيات السالفة قد ضيّق دائرة الدعاء فلم تتسع لغيره ،وإذا كان البرعي في البيت الآتي قد وسّع دائرة الدعاء لتشمل الأهل والأصد قاء والأقارب ،فإن هذا أقصى اتساعها :

واكرم معي نسلي وأهلي وجيرتي وسالف آبائي وصحبي وذا القربى[٨٧]

ويلاحظ أ نّ البرعي يفوق في عدد قصائد المديح التي أبدعها بغرض الإنشاد في حلقات *الذكر ،كما تفرّد في* إنشاد قصائد الصلوات الخاصة بالصلاة على النبي ﷺ بحيث تتكرر الصلاة على رسول الله ﷺ في كل بيت منها كما في قوله :

يارب صلى على النبي المجتبى ما غردت في الأيك ساجعة الربا

يارب صلى على النبي وآله ما اهتزت الأثلات من نفس الصبا

يارب صلى على النبي وآله ما لاح برق في الأباطح أو خبا[٨٨]

أما البوصيري فقد تفرد بعنصرين :

العنصر الأول : مدح آل البيت إما مع مدح المصطفى ﷺ في قصيدة واحدة ،وإما في قصيدة منفردة ، وهو ما ليس موجوداً في مديح البرعي ، ولا يعني ذلك قلا من البرعي أو عزوفاً كليا عن مدحهم فمحبة آل البيت تملأ فؤاده إلى جانب حبه للصحابة الكرام ، وهاهو يقول مصليا على رسول الله ﷺ وعلى خلفائه : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وعلى الآل والصحب الكرام :

صلى عليه الله ما هبت الصبا أو حن رعد في الد جى وتزرجما

وعلى أبي بكر فقد سبق الورى فضلاً وتصد يقاً له مذ أسلما

.....

وعلى الفتى عمر الذي بجهاده في الله حل بسيفه ما استبهما

.....

والآل والصحب الكرام فإنهم شهب إذا ليل الحوادث أظلما

الضاحكون إذا الوجوه عوابس والمقدمون إذا المقدم أحجما [٨٩]

---

٨٥) المصدرنفسه:٨٨

٨٦) ديوان البرعي:

٨٧) المصدرنفسه:١٧٥

٨٨)ديوان البرعي:١١٠

غير أن التباين بينهما هو في شدة المحبة عند البوصيري التي تجلت من خلال إكثاره من مديحهم حتى لا تكاد تخلو قصيدة من ذكرهم ، وهو تارة يجمع بين مدحهم ومدح الصحابة في قصيدة واحدة ،وتارة يفرد الصحابة ، وربما خصص قصيدة في مدح آل البيت . وحب البوصيري لآل البيت ومديحهم ليس وليد تعصب أو انحياز عقدي أو فكري ، فهو مثل البرعي سنيّ العقيدة يحب آل البيت الأخيار كما يحب الصحابة الكرام ، وديوانه مملوء بمدحهم والثناء عليهم .

وإذا كان يقول في آل البيت :

آل بيت النبي طبتم فطاب الـ مدح لي فيكم وطاب الرثاء
أنا حسّان مدحكم فإذا نحـ ت عليكم فإنني الخنساء
سد تم الناس بالتقى وسوا كم سود ته البيضاء والصفراء

فإنه يردف ذلك بمدح الصحابة قائلاً :

وبأصحابك الذين هم بعـ دك فينا الهداة والأوصياء
أحسنوا بعدك الخلافة في الد ين وكلّ لما تولى إزاء [٩٠]

ويمكن القول : إن حب البوصيري لآل البيت وتعلقه بهم وإقباله على مديحهم إنما هو نتيجة لحب المصطفى ﷺ فمن أحبه أحب آل بيته . كذلك فهو امتثال لأمر الله القائل (.... قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ....) الشورى : من الايه ٢٣ وأمر المصطفى ﷺ إذ قال :(أحبوا الله لما يغذ وكم من نعمه ، وأحبوني لحب الله ،وأحبوا أهل بيتي لحبي "[٩١].

وربما كان لسلولكه على يد رجل من آل البيت – وهو الشيخ أبو الحسن الشاذلي – دوره في إحياء تلك العاطفة الدينية تجاه آ ل البيت حيث أحب فيهم ومن خلال شيخه عظمة السلوك وسعة العلم وسمو الأخلاق وعلو الهمة والتقوى والزهد.وهاهو يقول في مدح آل البيت مخاطباً السيدة نفيسة :

بآبائك الأطهار زيّنت العلا فحبّات عقد المجد منهم فرائد
فلم ينبسط إلا بعلمك عا لم ولم ينقبض إلا بزهدك زاهد
إ ذا ما مضى منهم إمام هدى أتى إمام هدى يدعو إلى الله راشد[٩٢]

٨٩)المصدر نفسه:١٦٥
٩٠)ديوان البوصيري:٧٠
٩١)الإمام السيوطي:الجامع الصغير:١٣٩
٩٢)ديوان البوصيري:١٠٧

وها هو يقول في مديح شيخه علي بن عبد الله – أبو الحسن الشاذلي – من قصيدة قالها يمدح أبا العباس المرسي ويعزيه بالشاذلي:

واسمع مدائح آل بيت المصطفى مني ود ونك جمعها في المفرد
صنو النبيّ أخو النبيّ وزيره ووليه في كل خطب مؤيد
جد الإمام الشاذلي المنتمي شرفا إليه لسيد عن سيد أسماؤهم عشرون
دون ثلاثة جاء ت على نسق كأحرف أبجد
لعليّ الحسن ا نتمى لمحمد عيسى وسّر محمد في أحمد
وأتى علي في العلا يتلوهم فاختم به سور العلا والسؤدد
أعني أبا الحسن الامام المجتبى من هاشم والشاذلي المولد [٩٣]

وأما العنصر الثاني : فهو مقارعة اليهود والنصارى ومجادلتهم والرد عليهم وكشف زيفهم وأباطيلهم وقد أولى البوصيري هذا الجانب اهتماما كبيراً، وتكرر في أغلب قصائد المديح النبوي عنده ،وهذا يعود إلى مكان الشاعر وزمانه وظروف معيشته، حيث عاش في رقعة من الأرض يتواجد عليها إلى جانب أبنائها المسلمين أقليات من النصارى واليهود ، وشاء ت الأقدار أن يعايشهم ويحتك بهم ، وأن يتعرف عن قرب على معتقداتهم ومساوئهم ، فكان موقفه منهم نابعاً من قناعة ناتجة عن معايشة ومعرفة ، كذلك فقد عايش الحروب والحملات المتكررة على البلاد العربية ، هذا إلى جانب موقف اليهود والنصارى المعادي لرسول ﷺ خاصة ، ومحاولة النيل منه وانتقاصه ، كان لكل هذا دوره في إقبال الشاعر على هذا اللون من الشعر أما البرعي فقد عاش في بيئة مختلفة وظروف اجتماعية ومعاشية مباينة ، فلم تكن اليمن معرّضة لغزو صليبي مباشر كما هو الحال في مصر، و إن كان العدوان الصليبي يهدد كل البلاد العربية والإسلامية كذلك خلا المجتمع اليمني من الوجود المسيحي إذ لا يوجد في اليمن إلا د ين واحد هو الإسلام، فكان لانعدام هذه الأسباب دور في انعدام وجود هذا العنصر وتفرد البوصيري به ، وهذا لا يعني انعزال البرعي وعدم إدراكه لتلك المخاطر، فرائحة المعتدين ا لمنتنة ملأت أجواء البلاد العربية بأكملها عبر الزمن وأزعجت الخاصة والعامة لذا وإن انعدم عنصر المجادلة والمقارعة لمناوئي رسول الله ﷺ في شعر البرعي إلا أنه شارك البوصيري في جانب المفاضلة والمفاخرة برسول الله ﷺ ، كما في قوله :

بشرى ظراف القوا في أنها ظفرت بسيد العرب العرباء بشراها
فالحمد لله نحن الفائزون به في ملة نعم عقبى الدار عقباها

٩٣)المصدر نفسه: ١٢٠

هذا محمدالمحمود سيرته هذا أبرّ بني الدنيا وأوفاها[٩٤]

وقوله مخاطباً رسول الله ﷺ :

فالفخر مفتخر وفيك فخاره والجود موجود ومنك غمائمه

وعليك صلى الله ما هب الصبا برياح نجد أو نسمن نسائمه [٩٥]

٣- التأثير :أما إذا قارنّا بين الشاعرين من حيث التأثير والشهرة فلا وجه للمقارنة ، ذلك أن البرعي وإن نال شهرة لا تنكر على مستوى الوطن العربي والإسلامي ، وتأثر به الشعراء وأقبلوا على شعره ومنهم من عارض بعض قصائده ومنهم من خمّسها ، كما في هذه القصيدة التي خمّسها محمد أحمد الخطيب العربي:

فؤادي بالأحبة ما تهنى وجسمي حين زاد الوجد أنّا

وإنّي ساهر والليل جنّا سمعت سويجع الأثلات غنّى

على مطلولة العذ بات رنّا([٩٦])

فإنه بحكم تأخره الزماني أحد تلاميذ البوصيري الذين استمدوا من مدده وارتشفوا من كأسه وتتلمذ وا على شعره وتأثروا بمدائحه ، وذلك فضل السابق على اللاحق .

والبوصيري في نظر الكثير من الشعراء والعلماء هو إمام الماد حين بلا منازع ، وقد نال شهرة كبيرة بفضل قصائده (البردة ،الهمزية،المضرية) وبالأخص (البردة) التي نالت أعظم شهرة وأوسع انتشاراً وأكثر تأثيرا في مجال الأدب وفي المجال الديني والصوفي . وقد حام حولها العلماء والأدباء والشعراء شرحاً وتحليلا ومعارضة وتضميناً وتخميساً وتشطيراً ومحاكاة لشكلها ومضمونها ، وحفظها العلماء وطلابهم ،ورددها الذاكرون في مجالس الذكر، وأصبح لا يذكر المديح النبوي إلا ويذكر البوصيري وبردته ، وهناك أسباب عدة لشهرة هذه القصيدة من أبرزها :

أولا – القداسة المستمدة من قداسة ممدوحهاﷺ،وما أظفته تلك الرؤيا من هالة عظيمة على القصيدة ، ذلك أن البوصيري بعد أن أصيب بمرض الفالج نظم قصيدة البردة مستشفعاً بها إلى الله تعالى وطالباً منه العافية ، فرأى أنه يلقيها بين يدي رسول الله صلى عليه وسلم وأن رسول الله يلقي عليه بردته ،فانتبه من منامه وهو يحس في جسده قوة ونهضة ، وقد انتشرت هذه الرؤيا وكان لها دورها في شهرة القصيدة .

٩٤)ديوان ابرعي:٢٠٩

٩٥)المصدرنفسه:١٩٣

٩٦)هامش الديوان القديم،الطبعةالمصرية:١٦٩

ثانياً – قوة سبكها وروعة خيالها وعذوبة ألفاظها وصدق عاطفتها ، فقد " بلغ البوصيري فيها من صدق التعبير ما ارتفع بها إلى مستوى لم يقاربه سائر شعره وحتى الزخارف اللفظية نفسها أتت– في أكثر الأحيان – مقبولة لا يضيق بها الذوق. وهذا هو ما ضمن للبردة شهرة وذيوعاً لم تبلغها أي مدحة نبوية أخرى ، على كثرة ما نظم في عصرها وبعد ذلك حتى اليوم وهو ما يفسر اهتمام الأدباء والعلماء بها من عرب وغيرعرب ، بشكل لا نكاد نجد له مثيلاً مع أي نص شعري آخر "[٩٧] .

وقصيدة تبلغ هذا المبلغ في الشهرة لا غرابة أن يكون لها ذلك الأثر البالغ في الأدب العربي

وهو موضوع يحتاج إلى بحث مستقل،أو أن يكون موضوع رسالة علمية ، ولذا يتفق الباحث مع الدكتور زكي مبارك[٩٨] في إرجاع أثرها في اللغةالعربية إلى خمس نواح : أثرها في الجماهير، وأثرها في التأليف ، وأثرها في الدرس ، وأثرها في الأشعار ، وأثرها في البد يعيات .

٩٧)الدئح النبوية:١١٩

٩٨)انظر :د/زكي مبارك:المدئح النبوية في الأدب العربي:٢١٥

المبحث الثالث : الموازنة في البناء الفني

١- بناء القصيدة :

إذا نظرنا إلى قصيدة المديح النبوي عند الشاعرين نجد أن بناءها يقو م على مقدمة يأتي

بعدها الغرض الأساسي وهو مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ،ثم تاتي الخاتمة ، وهذا البناء يشمل جلّ قصائد المديح النبوي عند الشاعرين إلا ما ند ر حيث نجد بعض القصائد لا تبتدئ بمقدمة وإنما

يدخل الشاعر مباشرة بمديح المصطفى ﷺ .

ويمكن القول : إنّ هذا البناء الفني ليس مبتدعاًأو جديداً ، وإنما هو التزام بنهج القصيدة العربية منذ العصر الجاهلي ، حيث " كان الشعراء يفتتحون معظم قصائدهم الطويلة بالوقوف على الأطلال فيصف الشاعر هذه الأطلال ، ويصف وقوفه فيها على ناقته أو جمله، وإيقافه أصحابه ، ويقوده ذلك إلى وصف ناقته هذه ووصف رحلته عليها في الصحراء حتى يصل إلى غرضه الأصيل من القصيدة ،فيمدح أو يهجو"[٩٩] وقد سار شعراء المديح النبوي في عصر صدر الإسلام على هذا المنوال ، حيث" لم يكن أمامهم مثال يحتذ ونه، فلم يخرجوا في مدحهم له عما عرفوه في مدح غيره إلا بإضافة بعض المعاني الإسلامية إلى مد يحهم[١٠٠] وحذا حذوهم من أتى بعدهم من شعراء المديح النبوي على

مر العصور ، مع تأثر كل شاعر بعصره وبيئته كذلك "أخذ شعراء المديح النبوي يستعيضون شيئاً فشياً عن ذكر الأطلال والد يار ... بذكر الأماكن الحجازية والتشوق إليها "[١٠١]

وهذا ما نجده عند كل من الشاعرين مع تباين بالالتزام بالمقدمة واختلاف في الأساليب ، فالبوصيري أقل التزاماً بالمقدمة من البرعي ، حيث نجد إن القصائد التي تفتتح بالمديح مباشرة عنده أكثر منها عند البرعي وإن كان الفارق قليلاً ، فقصائد البرعي لا تتجاوز الأربع

أما البوصيري فنصف قصائده في المديح النبوي بدون مقدمات .

ذلك أن للبوصيري موقفه من المقدمات ، يتجلى ذلك من خلال قصيدته التي افتتحها بقوله :

مدح النبي أمان الخائف الوجل فامدحه مرتجلاً أو غير مرتجل

ولا تشبب بأوطان ولا دمن ولا تعرج على ربع ولا طلل

---

٩٩)وليد قصاب:قضيةعمودالشعرفي النقدالقديم:٤٢

١٠٠)المدائح النبوية حتى نها ية العصرالمملوكي:٣١٦،وانظرابن خلدون:المدمة:٥٧١/٢

١٠١)المصدرنفسه:٣١٧

وصف جمال حبيب الله منفرداً بوصفه فهو خير الوصف والغزل[١٠٢]

فهو ينهي عن المقدمة والتشبيب بالأوطان والدمن والتعريج على الربوع والأطلال ، ويدعو إلى مدح المصطفى ﷺ منفردا ، فوصف جمال رسول الله ﷺ يغني عن الغزل والمقدمات ، وابرز قصائده التي يفتتحها بالمديح مباشرة :(الهمزية) إذ يستهلها بقوله :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ياسماء ما طاولتها سماء [١٠٣]

ومن خلال أسلوب الشاعر وما ورد في الأبيات من الافتتاح بالاستفهام الموجه للمخاطب،وتكرار أدوات المخاطب(الكاف،أنت)،وورود ألفاظ :(سنا،النجوم،مصباح،ضوء) نستنتج أن الشاعر كان في حالة وجدانية عميقة وفي لحظة مشاهدة روحية،واستغراق في حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

فلا مجال لمقدمة،أومخاطبة غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشاهدة أنوار هدايته وعلو مكانته.

وهناك قصائد أخرى للبوصيري تخلو من المقدمة وهي تلتقي مع قصائد البرعي التي خلت من المقدمات في :أ ن هذه القصيدة السابقة أتت نتيجة موقف معين أملى على الشاعر قصيد ته كما في القصيدة السابقة أونظمت للإنشاد في الاحتفالات الدينية وحلقات الذكر ،ومنها قصيدة البوصيري التي بدأ ها بقولة:

الصبح بدا من طلعته والليل دجا من وفرته

فاق الرسلا فضلاً وعلا أهدى السبلا لدلالته[١٠٤]

وقصيدة البرعي التي بدأها بقوله:

أعلمت من ركب البراق عتيما وتلاه جبريل الأمين نديما

حتى سما فوق السماء قد وما ود نا فكلم ربه تكليما[١٠٥]

غير أن هذا الموقف لم يكن ثابتابل تغير فيما بعد، وذلك في مرحلة متأخرة من حياة البوصيري حيث كان أنضج تصوفا، وأنضج فنا،ذلك أن ذ كر الأماكن الحجازية والتشبيب بها مذهب فني أصيل،وضع أصوله المتصوفة من شعراء المديح النبوي،ولم يتسنّ إلا لأولئك الذين نضج تصوفهم واكتمل .وعلى هذا فإن نضج تصوف البوصيري قد رافقه نضج فني أيضا بحيث وعى تقاليد قصيدة المديح وخبرها [١٠٦] .

١٠٢)ديوان البوصيري:٢٣٣

١٠٣)المصدرنفسه:٤٩

(١٠٤) ديوان البوصيري : ٢٧٥

(١٠٥) ديوان البرعي :٩٧

(١٠٦) انظر : المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي:١٧١

لذا نلاحظ أنّ الشاعر عنده– من خلال مقدماته في مديحه النبوي – تقليد ا ن فنيا ن متغايرا ن فإذا كان قد نبذ المقدمة ودعا إلى هجرها كما مرّ بنا سابقا فإنا نجد له قصائد بمقدمات ، بل إنه في مرحلة لاحقة أنشأ قصيدة ابتدأها بمقدمة تعتبر من أجود المقدمات ، تمثلها الشعراء وأثنى عليها الأدباء يقول ابن حجة الحموي(١٠٧): "إن الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم إن يحتشم فيه ويتأدب ويتضاءل ويتشبب ، مطربا بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والعذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر ، ويطرح ذكر محاسن المرد والتغزل بثقل الرد ف.... ومطلع البردة .... في هذا الباب من أحسن البراعات وهو:"

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاجرى من مقلة بدم(١٠٨)

وهكذا نجد المقدمة عند كل من الشاعرين غيرأ نهمالم يلتزمابنوع واحد من أنواع المقدمات ، وإنما تنوعت،إشتركا في بعضها واختلفا في بعض آخر ، فمن المقدمات التي نجدها عند كل من الشاعرين :مقدمة التود يع والرحيل والبين ،إذ يقول البوصيري :

أزمعوا البين وشد ّوا الرّكابا فاطلب الصبر وخلّ العتابا

ود نا التّوديع ممّن وددنا أنّهم داموا لدينا غضابا

فاقرضيف البين د معا مذالا ياأخاالوجد وقلبامذابا(١٠٩)

ويقول البرعي:

قل للمطيّ اللواتي طال مسراها من بعد تقبيل يمناهاويسراها

ماضرّهايوم جدّالبين لووقفت نقصّ في الحيّ شكواناوشكواها

لوحمّلت بعض ماحمّلت من حرق ما استعذ بت ماءها الصافي ومرعاها(١١٠)

ومقدمة في ذم النفس ولومها ، والتحسر على ما ضاع من أيام العمر في اللهو، يقول البوصيري :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

في كلّ يوم ترجّي أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتّسويف محلول

أما يرى لك فيما سرّ من عمل يوما نشاط وعمّا ساء تكسيل (١١١)

ويقول البرعي:

متى يستقيم الظل والعود أعوج وهل ذهب صرف يساويه بهرج

(١٠٧) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب :٣٧

(١٠٨) ديوان البوصيري :٢٣٨

(١٠٩) ديوان البوصيري :٧٧

(١١٠) ديوان البرعي :٢٠٧

(١١١) ديوان البوصيري: ٢٢٠

ومن رام إخراج الزكاة ولم يجد نصابا يزكيه فمن أين يخرج
هي النفس والدنيا وإبليس والهوى بطاعتهم عن طاعة الله أزعج[١١٢]

وتجدر الإشارة هنا إلى لمسة الحزن والألم المصاحب للإقرار بالذنب والتقصير عند كل من الشاعرين ، كما في قول البوصيري:

رسول الله دعوة مستقيل من التقصير خاطره هبوب
تعذّر في المشيب وكان عيّا وبرد شبابه ضاف قشيب

.....

وللذّنب الذي ضاقت عليه به الدنيا وجانبها رحيب
يراقب منه ماكسبت يداه فيبكيه كما يبكي الرّقوب
وأنّى يهتدي للرشد عاص لغارب كلّ معصية ركوب
يتوب لسانه عن كل ذنب ولم ير قلبه منه يتوب[١١٣]

ويقول البرعي:

فيا شؤم حظي حين ينكشف الغطاء إذا لم يكن لي من ذ نوبي مخرج
وليس معي زاد ولا لي وسيلة سوى هاشمي بالبهاء متوج[١١٤]

وهذا الانكسار له من واقع حياة الشاعرين ما يبرره، أما الأول فقد تأخر في توجهه بمديحه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم،وهاهو يشير إلى ذلك قائلاً:

ضيّع الحزم وفيه شباب وأتى معتذراً حين شابا
وغدا من سوء ما قد جناه نادما يقرع سنا ونابا[١١٥]

وأما الآخر فقد حج ولم يقدّر له زيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم رغم شدة حبّه واضطرام شوقه ، فانعكس ذلك على نفسيته ،وإن كان ذلك الحدث قد أورث الشاعر حزنا وألماً ، فقد انعكس على وجدانه حباً على حب ، وشوقا على شوق ، وعلى مديحه زيادة في الإبداع ، وها هو يقول :

فومن أحنّ إلى زيارة سوحه لأكفرنّ خطيئتي بمديحه[١١٦]

ويقول مخاطبا رسول الله ﷺ:

ومهما تناء ت عنك داري فإنني لأصبح ياشمس الهدى جارك الجنبا

(١١٢) ديوان البرعي :٢٤٦
(١١٣) ديوان البوصيري:٨٨
(١١٤) ديوان البرعي :٢٤٧
(١١٥) ديوان البوصيري:٨٢
(١١٦) ديوان البرعي :٢٠٠

فما كان عودي إ ذ حججت ولم أفد عليك جفاء لا ومن فلق الحبا
ولكن تصاريف الزمان كثيرة وأنت إ ذا استعتبت أجدر بالعتبى

فأنه مع ذلك يمكن القول : إن التواضع والانكسار والاعتراف بالذنب والتقصير هو منهج الصوفية في طريق السلوك ،يقول ابو الحسن الشاذلي :" من لم يزدد بعلمه افتقاراً لربه وتواضعاً لخلقه فهو هالك[١١٧] ويقول :" عليك بالاستغفار وإن لم يكن هناك ذ نب واعتبر باستغفار النبي ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا من معصوم لم يقترف ذ نباً قط و تقد س عن
ذلك ، فما ظنك بمن لا يخلو عن العيب والذنب في وقت من الأوقات"[١١٨].

وهناك مقدمة الشوق والحنين وحث العيس على المسير ، فهذا البوصيري يفتتح قصيدته بقوله :

سارت العيس يرجّعن الحنينا ويجاذ بن من الشوق البرينـا
داميات من حفى أخفافها تقطع البيد سهولاً وحـزونـا
وعلى طول طواها حرمت عشبها المخضر والماء المعينـا[١١٩]

أما البرعي فيفتتح قصيدته بقوله :

هي العيس نوليها الحنين فتسعد ونزجرها نحو الحبيب فتصعد
يذكرها الحادي بجيرة طيبة فيأخذها شوق مقيم ومقعد
وإن سمعت سجع الحمام تذكرت بسلع حمامات تبيت تغرد [١٢٠]

ومن المقدمات تلك المقدمة التي يتغزل فيها الشاعر بذكر الأماكن والديار الحجازية وهبوب الريح من تلقاء المحبوب وزيارة طيفه ووصف أشواقه ومعاناته ، ويمكن القول: إنه غزل بالحب المحمدي ويغلب عليه الرمز على طريقة الصوفية.

وإذا كانت المقدمات من هذا اللون في شعر البرعي أكثر ، وتمتاز بالعذوبة والسلاسة إلا أن مقدمة البوصيري في قصيدته البردة التي حوت كل هذه المعاني تفوق مقدمات البرعي قوة وجزالة وجمالاً، يقول :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم[١٢١]

(١١٧) ابن سعد الطبقات الكبرى :٤/٢
(١١٨) الطبقات الكبرى :٤/٢
(١١٩) ديوان البوصيري :٢٥٧
(١٢٠) ديوان البرعي:٨٧
(١٢١) ديوان البوصيري :٢٣٨

أما البرعي فيقول :

مثل لعينك خدراً في الحمى ضرباً وانشد فؤاداً مع الاحباب مغتربا
وابك المنازل بعد الظاعنين دماً إن لم تر الدمع يقضي عنك ما وجبا
ولا تلم في الهوى العذري ذا شجن في الغور هب له ريح الصبا فصبا
إن حدث الركب عن نجد بكى شجناً وإن رأى النار في نجد بكى طرباً
والورق ساجعة تغرى الغرام به والبرق يلهبه وجداً إذا التهبا [١٢٢]

ويمكن الإشارة إلى أن هناك مقدمات مستحدثة في مديح البوصيري ، منها : لوم النفس والتحسر على مامضى ، ومقدمة في حب الله وحمده وتسبيحه ، وإن كان هناك مقدمات مشتركة إلا أن الفضل يعود فيها للأول ،ويمكن القول:إنها من المقدمات المستحدثة في مديح البوصيري ،وحذا حذوه من لحقه من ا لشعراء ومنهم البرعي،منها:لوم النفس ، والتحسر على ما مضى، والمقدمة الدعائية،ومقدمة الحمدو التسبيح ،كما أن هناك مقدمات انفرد بهاكل من الشاعرين،فالبوصيري انفرد بمقدمة الدعاء ،ومقدمة التسبيح والحمد ، والمقدمة التقريرية حيث يقرر الشاعرأنّ مدحه كفارة لذ نوبه،ويحث نفسه على مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ،كمافي مقدمته التي يفتتحها بقوله:

إلهي على كل الأمورلك الحمد فليس لما أوليت من نعم حد[١٢٣]

وقوله في مفتتح قصيدةاخرى:

أمدائح لي فيك أم تسبيح لولاك ما غفر الذنوب مديح
حد ثت أن مدائحي في المصطفى كفارة لي والحديث صحيح[١٢٤]

أماالبرعي فقد انفرد بألوان من المقدمات منها التغزل بالكعبة،كما في مقدمة قصيد ته التي مطلعها:

سقاك الحياالوسمي ربعا تأبدا وعادك عيدالأنس وفقامؤبدا
.....
وذات جمال في أباطح مكة محاسنها تذكى سنا متوقدا
إذامارآهاالعاشقون رأيتهم يخرون للأذقان يبكون سجدا
عكوفا بمغناها حيارى بحسنها فلله كم أضنت قلوبا وأكبدا[١٢٥]

(١٢٢) ديوان البرعي :٢٢٣
(١٢٣) المصدر نفسه :١١١
(١٢٤) ديوان البوصيري :١٠٣
(١٢٥) ديوان البرعي :١٩٤

ويلاحظ على هذه القصيدة وجود الرمزوغلبة الطابع الصوفي ، ومن مقدما ته : الفخر بلغته وفصاحته:

كلام بلا نحو طعام بلا ملح ونحو بلا شعر ظلام بلا صبح
ومن يتجرعلما ويلغهما يعد بلا رأس مال في الكلام ولاربح
أذاشرحوا فضل العلوم فإنني غني بفضل النحو عن ذلك الشرح
يليق الخطاب اليعربي بأهله فيهدي الوفاللنقص والحسن للقبح[١٢٦]

ومنها المقدمة الغزلية التي يغلب عليها الأسلوب الصوفي الذي يعتمد التورية والتلميح دون الإفصاح والتصريح كما في قصيد ته التي مطلعها :

عاهدوا الربع ولوعا وغراما فوفوا للربع بالعهد ذماما [١٢٧]

٢- حسن التخلص والختام :إذا كان يستحسن في المدح بل من صحته " صحة النسق والنظم ؛وهو إن يستمر الشاعر في المعنى الواحد ،وإذاأراد أن يستأنف معنى آ خر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه[١٢٨] ، فإنه يمكن القول : إن الشاعرين قد أجادا في هذا الجانب فأحسنا التخلص من المقدمةإلى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ وهاهو البوصيري يمض في مقدمته الغزلية – في قصيدته (البردة)- إلى أن يقول :

أستغفر الله من قول بلا عمل لقد نسبت به نسلا لذي عقم
أمرتك الخير لكن ما ا ئتمرت به وما استقمت فما قولي لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة ولم أصل سوى فرض ولم أصم[١٢٩]

ثم يتخلص إلى مدح المصطفى (ﷺ) فيجيد التخلص قائلا :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحا مترف الأدم[١٣٠]

وكذلك البرعي أجاد التخلص فهاهو في قصيد ته التي مطلعها :

هم الأحبة إن جاروا وإن عد لوا فليس لي معدل عنهم وإن عدلوا

يمضي في غزله إلى أن يقول :

(١٢٦) ديوان البرعي :١٦٦
(١٢٧) المصدر نفسه :٢٢٣
(١٢٨) ابن سنان الخفاجي :٢٦٨
(١٢٩) ديوان البوصيري:٢٤٠
(١٣٠) المصدر نفسه :٢٤٠

لادر درّ المطايا أينما ذهبت إن لم تنخ حيث لاتثنى لها العقل
في روضة من رياض الجنة ابتهجت حسنا وطاب بها للنازل النزل

ثم يحسن التخلص قائلا :

حيث النبوة مضروب سرادقها وطالع النور في الآ فاق يشتعل
وحيث من شرف الله الوجود به فاستغرق الفضل فرد ماله مثل(١٣١)

وإذا انتقل الباحث إلى النظر في خاتمة قصيدة المديح النبوي عند الشاعرين يجدأن كلا منهما قد التزم بالخاتمة،ولكن البرعي كان أكثر التزاما بالخاتمة، فلا تخلو قصيدة عنده منها،أماالبوصيري فإنه ختم كل قصيدة لها مقدمة عدا القصيدة التي مطعها:

سارت العيس يرجعن الحنينا ويجاذ بن من الشوق البرينا(١٣٢)

أما القصائد التي ابتدأها بالمديح مباشرة فالنصف منها بدون خاتمة،منها القصيدة التي مطلعها:

مدح النبي أمان الخائف الوجل فامدحه مرتجلا أو غير مرتجل(١٣٣)

والقصيدة التي مطلعها :

محمد أ شرف الأعراب والعجم محمد خير من يمشي على قدم

ومنها قصيدة أخرى مطلعها :

الصبح بدا من طلعته والليل د جا من وفرته(١٣٤)

وقد التزم الشاعران بصيغة واحدة في الخاتمة هي الصلاة والسلام على رسول الله كما في ختام الهمزية :

وصلاة كالمسك تحمله مني شمال إليك أو نكباء
وسلام على ضريحك تخضل به منه تربة وعساء
وثناء قدمت بين يدي نجـ واي إذ لم يكن لدي ثراء
ما أقام الصلاة من عبد الله وقامت بربها الأشياء(١٣٥)

وختام البردة قوله :

و اذن لسحب صلا ة منك دائمة على النبي بمنهل ومنسجم
ما ر نّحت عذبات ا لبان ريح صبا وأطرب العيس حادي العيس بالنّغم(١٣٦)

(١٣١) ديوان البرعي :٢٢١
(١٣٢) ديوان البوصيري :٢٣٣
(١٣٣) المصدر نفسه :٢٧٤
(١٣٤) المصدر نفسه :٢٧٥
(١٣٥) المصدر نفسه :٧٧

وهذا البرعي يختم قصيد ته بالصلاة على رسول الله ﷺ قائلا :

عليك صلاة ربك ماتناغت حمام الأيك أو غصن تثنى[١٣٧]

ويقول في خاتمة اخرى :

وعليك صلى الله ماهبّ الصبا برياح نجد أو نسمن نسائمه

وعلى جميع الآل والأصحاب ما سجعت بأ يمن ذي الأراك حمائمه

(١٣٨)

وإذا كان للبوصيري فضل السبق على البرعي فإنه يمكن القول : إن الشاعرين قد وفقا في اختيار هذه الخاتمة ؛ وذلك أولا –للمناسبة ،فإذا كان موضوع القصيدة هو مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم والثناء عليه فإن الخاتمة بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون أنسب،وهذامافعله كثير من الشعراء الذين مدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى جانب ذلك لا شك أن للهمزية والبردة دورهما في ذلك وأثرهما على الشعراء .

ثانيا – إن الصلاة على رسول الله ﷺ هي من أفضل الذكر للأمرالإلهي بها في قول الله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين امنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)[١٣٩] وإذا كان الذكر أفضل من الدعاء فإن الختم بها أفضل من الختم بالدعاء ؛ لما ورد في الحديث القدسي : "من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ماأعطي السائلين [١٤٠] "وللذاكر بالصلاة على النبي ﷺ مزية ليست لغيره من الذاكرين ؛ وهي الصلاة من الله عليه لما ورد في الحديث الشريف : " من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا [١٤١]" لذلك اختارها البوصيري لختم قصائده ، واختارها الشعراء ، ومنهم البرعي ويمكن القول إ نّ قصيدة المديح عند كل من الشاعرين في أغلبها – ومع وجودالمقدمة–لاتخلو من الترابط والانسجام بين أجزائها ،فليس هناك شرخ بين أجزاء القصيدة،وليس هناك تنافر أوتعارض ولايحسّ المتلقي بانقطاعات شعورية أوفجوات عاطفية أوثغرات بنائية ، وإذا كانت الوحدة العضوية هي : "وحدة الموضوع ووحدة المشاعر[١٤٢] التي يثيرها الموضوع وما يلتزم بذلك من ترتيب الصور والأفكار على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية ؛ لكل جزء وظيفته بها ،ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر"فإن ما بين أيدينا من قصيد لا يخلو من هذا ، حيث ألّفت بين أجزائه حالة

(١٣٦) ديوان البوصيري :٢٤٨

(١٣٧) ديوان البرعي :٢٤١

(١٣٨) المصدر نفسه :١٩٣

(١٣٩) الاحزاب :٥٦

(١٤٠) جامع الامام الترمذي :١٥٢/٢

(١٤١) صحيح مسلم بشرح النووي :٧٦/٢/الامكام النووي : رياض الصالحين :٥٨٤

(١٤٢) محمد عنيمي هلال : النقد الادبي الحديث :٣٩٥

شعورية معينة ، فالمشاعر الدينية تطغى على وجدان الشاعر،ومحبة المصطفيﷺ تلف إبداعه وتد فعه إلى التغني برسول الله ﷺ في إبداع يؤدي بعض أجزائه إلى بعض.

٣- الموسيقى :

إذا كان عصر الشاعرين-العصر المملوكي- قد شهد إقبال الشعراء على الموسيقى فنوعوافي طريقة أداء القصائد،وأكثروا من التقطيع والجناس؛ليزيد وافي الإيقاع، وعمدوا إلى التخميس والتربيع والتشطير والتشريع ليمنحو اقصائدهم طاقة موسيقية زائدة تلائم الإنشاد والغناء في مجالس ذكرهم ومحافل أعيادهم ،فإن الباحث لم يجد لهذه الرغبة أثر يذكر عند الشاعرين.

ويمكن القول:إن الشاعرين قد نظما بالأوزان المألوفة القديمة، فنظم البوصيري بالبسيط والكامل والرمل ومجزوء الرمل والمتدارك،وكان البسيط هوأحب الأوزان إليه ،أماالقوافي فقد نظم على حروف (ل،ن،ه،ب،ح،د،ر)،وله :الهمزية، وكذلك البرعي نظم بالأوزان الطويلة والمتوسطة والقصيرة وشملت :الكامل ، والطويل ، والبسيط والوافر،والرمل ،والمديد ،والخفيف ، ومجزوء الخفيف ،ومجزوء الرمل ، والمجتث ، وإذا كان البسيط يأتي في المقدمة عند البوصيري يليه الكامل ،فإن الكامل يأتي في المقدمة عند البرعي يليه الطويل ، ثم البسيط ،ثم الوافر.

أما القافية فقد اشترك الشاعران بالحروف السابقة وتفرد البرعي بـ : (ق، ك، ض، ج، ت) وذلك يعود لكثرة نظمه بالنسبة للبوصيري .

وإذا كان مديح البرعي لم يول اهتماماً للتخميس والتربيع وغيرهما من الأوزان والأشكال الشعرية المستحدثة فإن مديح البرعي قدحوى التخميس والتربيع حيث خمس قصيد تين الأولى مطلعها :

لمحمد خطر المحامد يعظم وعقود تيجان القبول تنظم
وله الشفاعة والمقام الأعظم يوم القلوب لدى الحناجر كظم(١٤٣)
بحياتكم صلوا عليه وسلموا

والثانية:

أعلمت من ركب البراق عتيما وتلاه جبريل الأمين نديما
حتى سمافوق السماء قدوما ود نا فكلم ربه تكليما(١٤٤)
صلوا عليه وسلموا تسليما

وله رباعية مطلعها :

(١٤٣) ديوان البرعي :٩٤
(١٤٤) المصدر نفسه :١٩٧

قف بذات السفح من إضم وانشد السارين في الظلم
هل رووا علما عن العلم أم رأوا سلمى بذي سلم

سار في كل ثلاثة أشطر منها على حرف، وفي الشطر الرابع التزم حرف الميم في كل القصيدة:

ليت شعري بعدما رحلوا أي أكناف الحمى نزلوا
أبـذات ا لبان أم عدلوا ينشدون القلب في الخيم
فسقى مرعـاهم المطر وسرى ريح الصبا العطر
في ريـاض طلهـادرر بين منثور ومنتظم(١٤٥)

ويمكن القول:إن الشاعرين قد وفقا في اختيار الأوزان التي تناسب غرض المديح والإنشاد في حلقات الذكر والمناسبات معا ، "فالعروض الطويل تجد فيه أبدا بهاء وقوة ، وتجد للبسيط بساطة وطلاوة وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد ، وللخفيف جزالة ورشاقة ، وللرمل لينا وسهولة(١٤٦) "فإذا كانت الأوزان الطويلة تناسب غرض المديح فإن لتلك الأوزان الخفيفة والرشيقة دورها في جمال الشعر وزيادة تأثيره ، ولا شك أن هذه الأوزان قيلت بقصد الإنشاد في مجالس الذكر ، وقد كان للموسيقى الداخلية دورها وأثرها كذلك ، فإذا كان مبعث الجمال في موسيقى الشعر يرجع الى الانسجام الذي يد رك بالسمع ، وهذا يؤثر في السامع فيجتمع تأثير المعنى والصورة مع تأثير الإيقاع ، فيكون للشعر الوقع المميز في النفس ، وهذا يكون على أشده إذا كان الموضوع تهفو إليه النفس ويحرك مكان الارتياح فيها ، مثل الموضوع الديني ومدح رسول الله ﷺ الذي ترتاح له الأفئدة وترتاح لذكره القلوب (١٤٧) ، فإن هذا قد توفر في المديح الذي بين أيد ينا لكلا الشاعرين ، سمو الموضوع ،وحسن اختيار الألفاظ، وتناسقها وانسجامها مع المعنى والوزن والإيقاعات المؤثرة يقول البوصيري في المصطفى ﷺ.

الصبح بدا من طلعته والليل د جا من وفرته
فاق الرسلا فضلا وعلا أهدى ا لسبلا لدلالته
كنز الكرم مولي النعم هادي الأمم لشريعته(١٤٨)

فيلاحظ أن الشاعر قد اختار وزن المتدارك ، وهو من الاوزان الرشيقة ، كما يلاحظ التقطيعات وبناء الأبيات بناء يعتمد على جمع المفردات ذات الوزن والسجع الواحد ، مما يخفف الايقاع المطلوب .

ويقول البرعي:

(١٤٥) ديوان البرعي :٢٢٧
(١٤٦) د/ حسني عبد الجليل : موسقى الشعر :٢٠/١
(١٤٧) المصدر نفسه : ٢٠/١
(١٤٨) ديوان البوصيري :٢٧٥

مـن لنفس ثنـاها بعدهـا عـن مناها
أهلهـا فـي زرود وهـواها وراهـا
كلمـا لاح بـرق مـن جيـاد شجـاها [١٤٩]

ويقول :

بمحمد خطر المحامد يعظم وعقود تيجان القبول تنظم
وله الشفاعة والمقام الأعظم يوم القلوب لدى الحناجر كظم
فبحقه صلوا عليه وسلموا [١٥٠]

فيلاحظ في المقطوعة الأولى خفة الوزن وعذوبة الألفاظ وحسن اختيارها وتناسق الكلمات وانسجامها في إيقاع جميل مؤثر ، كان لتكرار حرف الها ء دوره في ذلك ، وكذلك القطعة الثانية وفيها يدور الشطر الأخير مع كل بيتين تاليين حتى يكون صالحا للإنشاد[١٥١] .

٤- البلاغة:

عاش الشاعران في العصر الوسيط : البوصيري في أول عصر المماليك ، والبرعي في آخره وهذا العصر شهد كثرة الشعراء كما شهد ضعف الإبداع الشعري عما كان عليه في العصور السابقة واشتغال الشعراء بالمحسنات والصنعة والتلاعب بالألفاظ على حساب المعاني غير أن الشاعرين – مكان البحث – كانا في منأى عن كل هذا ، فلم يلتفتا إلى الزينة اللفظية ولم يحفلا بالصنعة ، وإن جاء شيء منها في شعرهما فهو قليل عفوي غير متكلف، فإذا نظرنا إلى البوصيري نجد أن مديحه لا يخلو من الاستعارة والمقابلة والطباق والجناس غير أن التشبيه هو أكثر الصور ، والشاعر يقصد بذلك تقريب ما بنفسه من أفكار ومشاعر خدمة للمعنى لا تكلفا ولا تعسفا وهو "يجيده ويحلق فيه مقتنصا العلاقات بين المعنويات والمحسوسات بدقة وذكاء ، فحرك بذلك أسلوبه ، ومنحه شحنة عاطفية إضافية"[١٥٢] ، فمن ذلك قوله:

كيف ترقى رقيك الأنبيـاء ياسماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حال سنا منك دونهم وسناء
إنما مثلو صفـاتك للنا س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصـ در إلا عن ضوئك الأضواء[١٥٣]

(١٤٩) ديوان البرعي: ١٠٥
(١٥٠) المصدر نفسه: ٩٤
(١٥١) انظر : عصر الدول والامارات :١٩٧

(١٥٣) ديوان البوصيري:٤٩

فيلاحظ في البيت الأول "استعارة لفظ السماء ،الأول لنبينا ﷺ ، والثاني لبقية الانبياء لأن السماء أعلى ما يرى من الأجرام الحسية ، كما أنهم أعلى الخلق ، ورشح لذلك بذكر الارتقاء الملائم للمستعار منه "وفي البيت الثاني في قوله: –سنا –استعارة تجريد ية ،حيث جعل من الأو ل وهو الضيا ء ومن الثاني وهو الرفعة حاجزا يمنع عن اللحوق به ، كما أن في جمعهما جناس ناقص، وفي البيت الثالث مجاز عقلي ، حيث يصور الشا عر صفات الكمال على أنهاحقيقة في رسول الله ﷺ،كالنجوم الحقيقية المرئية من غير حائل ،أمافي بقية الأنبياء فهي كصور النجو م التي ترى في الماء دون حقيقتها وفي البيت الرابع تشبيه

و يلاحض التشبيه في الأبيات التالية :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم [١٥٤]

.....

كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في همم[١٥٥]

وقوله:

كأنما اللؤلؤ المكنون في صد ف من معد ني منطق منه ومبتسم[١٥٦]

أما عند البرعي فتأتي الاستعارة في المقدمة ، وإذا كان المتلقي يلحظ في مدائحه نفحة صوفية،وبالأخص المقدمات الغزلية التي تفوح منها رائحة الرمزية التي تستدعي في الأدب الصوفي الإغراق في الاستعارة والابتعاد في مدلول الكناية والاستعانة بمعطيات التورية فإنه فضلا عن ذلك يجد الباحث الجناس ورد العجز على الصدر،والمقابلة ، والطباق والتشبيه، فمن ذلك قوله:

إذا وصلوا طاب الزمان بوصلهم وإن هجروا فالهجر عندي أطيب

يحن ليزداد الحشا من حشاشتي ويستعذب التعذيب قلبي المعذب[١٥٧]

فيلاحظ في البيت الأول :الطباق بين(الوصل والهجر)،ويلا حظ في البيت الثاني: ا لجناس(الحشا–حشاشتي).

وقوله مستعيرا:

قمر تشعشع من ذؤابة هاشم في الأرض نور هداية وصواب[١٥٨]

وقد يجمع بين الجناس والطباق ورد العجز على الصدر كما في قوله:

(١٥٤) ديوان البوصيري : ٢٣٩

(١٥٥) المصدر نفسه : ٢٤٢

(١٥٦) المصدر نفسه :٢٤٢

(١٥٧) ديوان البرعي:٢٥٠

(١٥٨) المصدر نفسه :١٤٣

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي معد ل عنهم و إن عد لوا[١٥٩]

فيلاحظ الطباق بين (جاروا وعد لوا)،والجناس بين:عد لوا الأولى وهي: من العد ل، وعد لوا الثانية وهي: من الميل ، وبين لفظتي الجناس هاتين: رد للعجز على الصدر ، ومن التشبيه قوله:

محمد سيد السادات من مضر سرالسرارة شمس ماله طفل[١٦٠]

وقوله:

اليك شفيع المذنبين تجارتي فرائد في سلك المحامد تدرج

مؤلفها عبدالرحيم كأنها نجوم لها في جو جودك أبرج[١٦١]

ويمكن القول:إنه إذا كانت الصور التشبيهية تأتي في الصدارة في مديح البوصيري فإن الصور الاستعارية تأتي في المقدمة عند البر عي ، وقد برع الشاعران في صورهما– كما سبق الحديث–غيرأن البوصيري حاز

قصب السبق وبرع في تشبيهاته ،خاصة ما يتعلق منها بمعارك المصطفى ﷺ وغزواته كما في هذه اللوحة الفنية الجميلة التي استخدم فيها التشبيه ليبرز من خلاله صوره ويقرب معانيه:

ويوم بدر إ ذ الإسلام قد طلعت به بدورا لها بالنصر تكميل

سيئت بما سرنا الكفار منه وقد أفنى سراتهم أسر وتقتيل

كأنماهوعرس فيه قد جليت على الظبا والقناروس مفاصيل

والخيل ترقص زهوا بالكماة وما غير السيوف بأيديهم منـاديل

وكل ذي ترة تغلي مراجله غدا يقاد ذليلا وهو مغلول

وكل جرح بجسم يستهل دما كأنه مبسم بالراح معلـول

لا تمسك الد مع من حزن عيونهم إلا كما يمسك الماء

الغرابيل[١٦٢]

٥– اللغة:

إذا كان مديحهما قد تأثر كثيرا بالعلوم فإن تضلعهما بعلوم العربية وأسرار اللغة كان له أثره في تقويم اللسان وتهذيب الذوق وحسن اختيار الألفاظ ، يقول الدكتور جودة الركابي عن

(١٥٩) ديوان البرعي : ٢٢١

(١٦٠) المصدر نفسه :٢٢٢

(١٦١) المصدر نفسه :٢٤٩

(١٦٢) ديوان البوصيري:٢٢٨

البوصيري: يمتاز

مديحه النبوي– بالجزالة والرصانة ؛ويدل على معرفته باللغة وأسرار النظم التقليدي).[١٦٣]

فإذا كان المعروف أ ن الغالب على أسلوب كثير من الأدباء والشعراء في العصر المملوكي هو الضعف والركاكة والألفاظ العامية، فإ ن من الخطإ أن يعمّم هذا الحكم ويطلق دون تقييد؛ فهناك شعراء مثل البوصيري والبرعي يجد الباحث أ نه لامكان للضعف والركاكة في مديحهما النبوي ، و أن هذا المديح ابتعد عن العامية كما ترفع عن الابتذال، وأن الشاعرين طمحا إلى خارج عصرهما ونظرا إلى العصور القديمة خاصة البوصيري؛فأتى مديحهما في غاية الفصاحة والجمال،وتميّز مديح البوصيري بالقوة والجزالة ،كما في قوله في المصطفى ﷺ :

وكم دعا ومحيا الأرض مكتئب ثم انثنى وله بشر وتهليل
فأصبح المحل فيها لا محل لـه وغال ذكر الغلا من خصبها غول
فبالظراب ضروب للغمام كما عن البناء عزاليها معازيل
وآض من روضها جيد الوجود به من لؤلؤ النور ترصيع وتكليل
وعسكر لجب قد لج في طلب لغزوه غر ه بأس وترعيل[١٦٤]

أما البرعي فيمتاز بالعذوبة وسهولة الألفاظ فمدائحه من أسلس المدائح النبوية وأخفها وقعا على الآذان ؛بل إنها لتمتع الأسماع حين تصغي إليها كما تمتع الأ لسنة حين تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقيه .[١٦٥] ؛وهاهو يقول في إحدى مدائحه:

كم ذا أ حن إلى ذاك الحبيب على بعدي وأمسي سمير الوجد والسهد
أ ستودع الرب تسليمي إليه إذا جد الرحيل بهم عنّي وعن بلدي
وكم وكم بيننا من مجهل درس ومن فراسخ لاتحصى ومن برد
يا نازلا بد يار الشام لاتربت يداك تاجر بمدح المصطفى تفد
وحيّ عنّي حبيب الزائرين ولا تضع ود يعة واهي الصبر والجلد
واردد عليه سلاما لاانتهاء له كرمل عالج أضعافا وزد وزد[١٦٦]

فيلاحظ في الأبيات فصاحة الألفاظ وعذوبتها واعتدالها؛فلاإ يغال أ و تقعّر ولا ابتذال ،ويلاحظ ان هناك تكرارا لبعض الكلمات(كم وكم:زد وزد)؛وهو تكرار غير مصطنع أ ومتكلف؛وإنما له دوره في تقوية المعنى ودلالته في :التعظيم والتكثير.

(١٦٣) جودة الركابي: الادجب العربي في الانحدار الى الازدهار :١٧٨
(١٦٤) ديوان البوصيري :٢٢٥
(١٦٥) د/ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات :١٩٧
(١٦٦) ديوان البرعي :١٦٨

وبهذا يمتاز الشاعران عن كثير من شعراء عصرهما ، ويكونان من الشعراء المجيد ين في مجال المديح النبوي ،حيث ينطبق عليهما حكم ابن خلدون إذ يقول:وليتجنب الشاعر أيضا الوحشي من الألفاظ والمقعر وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضا فيصير مبتذلا...

ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب ولايحذق فيه إلا الفحول ،وفي القليل على العسر لأنّ معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك.[١٦٧]

وإذا كان للتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها ، "فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه[١٦٨] " ، فإنه يمكن القول : إن التكرار في المعاني لا مفر منه في قصيدة المديح النبوي سواء في مديح الشاعر نفسه أو مع الشعراء الآخرين ، ذلك أن المعاني مستمدة من مصادر معلومة وتدور في الغالب حول موضوعات معينة كالمعجزات والإسراء والمعراج والغزوات ، و إ نّ براعة الشاعر تتجلي في إلباسه المعنى ثوبا جديدا وصياغته في أسلوب جميل وصور مختلفة ، وهذا مانجده في كثير من الصور عند البوصيري ، وعلى سبيل المثال معجزة المصطفى ﷺ في الغار تعرّض لها البوصيري في أكثر من قصيدة، يقول:

أقسمت بالقمر المنشق إن له — من قلبه نسبة مبرورة القسم
وماحوى الغار من خير ومن كرم — وكل طرف من الكفار عنه عمي
فالصّدق في الغار والصديق لم يرما — وهم يقولون ما بالغار من أ رم
ظنّو الحمام وظنّو العنكبوت على — خير البريّة لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة — من الدروع وعن عال من الأطم[١٦٩]

ويقول من قصيدة أخرى في الحادثة نفسها:

واغيرتا حين أضحى الغار وهو به — كمثل قلبي معمور ومأ هول
كأنما المصطفى فيه وصاحبه الصـ — ـدّيق ليثان قد آواهما غيل
وجلل الغار نسج العنكبوت على — وهن فياحبذا نسج وتجليل
عناية ضل كيد المشركين بها — ومامكايدهم إلا الأضاليل[١٧٠]

فإذا كان الشاعر قد تحدث عن حادثة واحدة فإن الملاحظ أنّ الشاعر قد ألبس معانيه ثوبا جديدا وصاغها بأسلوب آخر فأتت صورتان جميلتان لكل صورة إيحاء اتها الخاصة

(١٦٧) مقدمة ابن خلدون :٥٧٥
(١٦٨) العمدة :٧٤/٢
(١٦٩) ديوان البوصيري :٢٤٣
(١٧٠) المصدر نفسه :٢٢٥

،ويلاحظ أنّ الأ بيات الأولى في قصيدة البردة أكثر جمالا وأوفر جزالة من الأبيات الأخرى التي تعود إلى

قصيدته اللامية:(ذخر المعاد)

أما البرعي فإنه وإن حاول ذلك واقترب من البوصيري إلا أنه لا يرقى إلي مستواه في مديحه النبوي .وها هو يتحدث عن الإسراء والمعراج، قائلا:

سارت من المسجد الأقصى ركائبه يزفه مسر ج الإسرا وملجمه

والشوق يهتف يا جبريل زجّ به في النور والنور مرقا ه وسلّمه

والعرش يهتزّ من تعظيمه طربا إذ شرّف العرش والكرسيّ مقدمه

والحق سبحانه في عزّعزّته من قا ب قوسين أو أ دنى يكلّمه(١٧١)

و يقول :

وساربه جبريل في سمر الرضا وبشر من أهل السما كل سامر

وزج به في النور حتى إ ذا انتهى إلى موقف ما فيه نهج لسائر

أشار إ ليه الله با لبشر فا نثنى يخو ض بحار النور خوض مباشر

وبيداء نور وحده جازجنحها على قدم ساع إلى الخير طاهر(١٧٢)

فيلاحظ تكرار ألفاظ بعينها مثل :(سار،زج،النور)،–فالمقطوعتان وإن كانتا على جانب من الجمال والعذوبة– تكاد تكون كل منهما صورة جديدة،إلا أ ن ما ورد فيهما من ألفاظ متكررة إلى جانب المعاني أعاقتهما عن التحليق إلى مستوى مديح البوصيري ، هذا إلى جانب أ نّ هناك مواضع يكرر فيها اللفظ والمعنى كما في قوله:

محمد سيد السادات من مضر حامي الحمى فرع أ صل طيب زاكي

محمد سيد السادات من مضر سرالنبيين محى الدين مكرمه

محمد سيد السادات من مضر سر السرارة شمس ماله طفل(١٧٣)

فيلاحظ : ا لتكرار في الشطر الأول ، وإذا كان هذا من التكرار المذموم في نظر ابن قتيبة–كما سبق– فهو من باب تكرار اللفظ والمعنى .

(١٧١) ديوان البرعي:١١٧

(١٧٢) ديوان البرعي :١٤٨

(١٧٣) المصدر نفسه :٢٢٢،١١٦،١٤٠

وربما كان البعد الزمني والنسيان هما السبب في هذا التكرار و الشاعر لا يرى بأسا في هذا التكرار، و التكرار – هنا – كان بغرض الإنشاد كما أنه دليل المحبة وقد اعتاد المحبون تكرار أسماء محبوبيهم.

٦- التأثر:

سبق الحديث عن ثقافة كل من الشاعرين ، وأنهما كانا على جانب كبير من العلم والثقافة وسعة الاطلاع لاسيما على سيرة المصطفى ﷺ وأخباره وصفاته فما بين أيدينا من مديح نبوي متأثر بل مستمد ومستقى من القرآن الكريم والسنة المطهرة والسيرة العطرة وبقية المصادر الدينية والتاريخية والأدبية وكتب المغازي والسّير ولولا تضلعهم بالسيرة العطرة لما تمكنوا من وصف رسول الله وذكر
أخباره وشمائله وغزواته.

وقد تميّز البوصيري بالاطلاع على الثقافات والأديان السابقة مما مكنه من الرد على أهل الكتاب ولا شك أنّ كلا من الشاعرين قد تاثر بتلك الثقافة وانعكس ذلك التأثر في مديحه ، ومثلت تلك الثقافة مرجعية ذات أ ثر واسع في أ لفا ظهما وصورهما ومعانيهما ، وهاهي معاني القرآن الكريم والسنة المطهرة تتجلى في قول البوصري مخاطباً رسول الله ﷺ :

لك ذات العلوم من عالم الغي ب ومنهاآدم الاسماء
لم تزل في ضمائر الكون تختا ر لك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل إ لا بشّرت قومها بك الأنبياء[١٧٤].

فالبيت الأول من قوله تعالى:(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد ا)[١٧٥] ومن قوله تعالى (وعلّم آ دم الاسماء كلها)[١٧٦] وأ ما البيت الثاني فمن قول المصطفى : إنّ الله اختار العرب واختار من العرب قريشا واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار من خيار"[١٧٧]وأما البيت الثالث فمن الآية الكريمة :(ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد...).[١٧٨]

ويقول البرعي:

هو الرحمة المهداة للخلق حبذا كريم السجايا خير باد وحاضر

(١٧٤) ديوان البوصيري :٥٠
(١٧٥) الجن :٢٦
(١٧٦) البقرة: من الآية ٣١
(١٧٧) انظر ابي نعيم الابهاني : دلائل النبوة :٥٩
(١٧٨) الصف : من الآية ٦

أليس انشقاق البدر معجزة له وظل غمام الجو عند الهواجر
وسجدة أجمال وسجدة ظبية وحنة جذع من هشيم المنابر(١٧٩)

فالأبيات تستمد معانيها من القرآن الكريم والسنة المطهرة ومن السيرة العطرة ، فالبيت الأول من قوله تعالى (وما أ رسلناك إلا رحمة للعالمين)(١٨٠) ،وانشقاق البدر ثابت في الكتاب والسنة

قال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر)، وكذا لك ثبت في السنة الصحيحة أن الغمام يظلله ﷺ،وكذلك قصة الجمل والظبية وحنين الجذع(١٨١).

و إ ذا كان البوصيري قد عرف بحبه الشد يد للمصطفىً فإن تلك المحبة انعكست على نفسية الشاعر غيرة ودفاعا عن رسول الله ﷺ ووقوفا في وجه أعدا ئه، ورد شبههم والدّعاآتهم ، وكان للطلاع الشاعر على التراث الأدبي وتضلعه بعلومه أثره على شعره وا نعكاسه على صوره فأتت مستوحاة من ثقافته ، وهاهو يثني على رسول الله ﷺ وعلى د ينه ويكشف القناع عن كذب اليهود والنصارى،مستوحيا أفكاره من واقع كتبهم قائلا:

إن أنكروا فضل النبي فإنما أرخوا على ضوء النهار سدولا
الله أكبر إن دين محمد وكتا به أ قوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع النهار فأطفئو االقنديلا
درست معالمها ألا فاستخبروا منها رسوما قدعفت وطلولا
تخبركم التوراة أن قد بشرت قدما بأحمد أ م بإ سماعيلا
ودعته وحش الناس كلّ ندية وعلى الجميع له الأيادي الطولى(١٨٢)

ويعلق الشاعر على هذه الأبيات قائلا:"وكما أنّ في مواضع كثيرة من التوراة ذكر يعقوب عليه السلام والمقصود به ولد يعقوب ، فمن ذلك في السطر الخامس: يا إسرائيل لأن تخشى الله ربك وتسلك في سبيله وتعمل له "فهذا خطاب لبني إ سرائيل باسم أبيهم...وفي التوراة يقول لإبراهيم،وفي إسماعيل :"قد سمعتك وباركته وكرمته جداجدا"، وفي نسخة أخرى :طيبا طيبا وقل حمداحمدا، وسيلداثني عشرعظيما و أجعله لأمةعظيمة".فهل كانت لإسماعيل أمة عظيمة؟لكن الأمة العظيمة لولده محمدﷺ.(١٨٣)"وإذا كان من شعراء المديح النبو ي من يرص الو قائع والغزوا ت والمعجزا ت ويسرد هاسردا في نظم جاف هو أقرب الى العلم منه الى

(١٧٩) ديوان البرعي :١٤٧
(١٨٠) الانبياء :١٠٧
(١٨١) انظر ابي نعيم الاصبهاني : دلائل النبوة :٣٧٥-٣٧٦،٣٨٠-٣٨٣،٣٩٩-٤٠٤
(١٨٢) ديوان البوصيري:١٩٣
(١٨٣) نفس المصدر :١٩٤

الشعر ،فان مابين أيدينا من مديح سواء للبوصيري أوللبرعي وإن كان لايخل بعضه من السرد إلا أن أغلبه يتميزعن كثير من المديح النبوي عند بقية الشعراء بعذوبته وصدق عاطفته ووصفه الفني للمولد ، وللمعارك والأحداث والمعجزات ،وصفافنّيا حافلا بالصور والأخيلة والحياة ، وهاهو يقدم صورة بهية مشرقة عن ليلة المولد النبوي وماحل في هذه الليلة بالكون من ذ ل الكفر وخمود ناره ، ومن احتفاء الكون وفرحته بظهور الحق وانبلاج نوره .قائلا:

أبان مولده عن طيب عنصره ياطيب مبتدإ منه ومختتم
يوم تفرّس فيه الفرس أنهم قدأنذروابحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهومنصدع كشمل أصحاب كسرى غيرملتئم
والنا رخامدة الأنفاس من أسف عليه والنهرساهي العين من سدم(١٨٤)

وهذاالبرعي يقول في المصطفى ﷺ:

فذاك من ثمرات الكون أطيب ما جادالوجود به أعلاه أعلمهُ
فمارأت مثله عين ولاسمعت أذن كأحمد أين الأين تعلمه
أمست لمولده الأصنام ناكسة على الرؤوس وذاق الخزي مجرمه
وأصبحت سبل التوحيد واضحة والكفر يند به بالويل مأتمه
والأرض تبهج من نور ابن آمنة والعدل تصمى ثغور الجور أسهمه(١٨٥)

واذا كان المديح النبوي قد نما وتطور وا زدهر في رياض التصوف الخصبة بذكر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وفي أ جوا ئه العبقة بحبهما فإنّ أ ثرالتصوف بصوره ومعانيه ومذ ا قاته بارزة في المديح النبوي الذي بين أيدينا لكل من الشاعرين . من خلال : الغزل الصوفي البعيد عن أهواء النفس وشهواتها والمحلّق في سماء الروح ونقائها ، روح الزهد التي تشع في شعرهما والالتجاء الملح إلى رسول الله ﷺ لنيل شفاعته والفوز بمجاورته في دار الخلود ، والنزعة الذاتية والتحليق في عالم الروح والصفاء وذم النفس واتهامها ومخالفتها ، والمحبة الصادقة لرسول الله ﷺ والشوق إليه والحنين إلى دياره وتكرار ذكرها، والتنا غم والانسجام مع الطبيعة ورياضها ونسيماتها وبروقها ومياهها وأشجارها .....الخ، والرمز الذي هو من أبرز خصائص الشعر الصوفي وإن كان قد تفرد به البرعي في مقدماته الغزلية التي تفيض حبا وصفاء وهاهو يشير الى مسلكه ونهجه في شعره قائلا:

مالحب إلالقوم يعرفون به قدمارسوا الحب حتى ها ن معظمه
عذابه عندهم عذ ب وظلمته نور ومغرمه بالراء مغنمه

(١٨٤) نفس المصدر :٢٤٢
(١٨٥) ديوان البرعي:١١٧

كلّفت نفسك أن تقفو مآثرهم والشيء صعب على من ليس يحكمه
إني أورّي لغيري حين يسألني بذكر زينب عن ليلى فأوهمه
يامن أذاب فؤادي في محبته لو شئت داويت قلبا أنت مسقمه[١٨٦]

أما التأثر بالمصطلحات العلمية والفقهية فهو قليل قياسا بغيرهما من الفقهاء الشعراء ، ومن ذلك قول البوصيري:

نسخت آياته أيدي البلى فأرت عيني منه الصاد شينا[١٨٧]

إنّ الطلل الذي كان بيتا قائما مثل حرف الصاد تحوّل إلى خراب فأصبح مثل شكل حرف الشين وقوله من قصيدة أخرى:

خفضت كل مقام بالاضافة إذ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم[١٨٨]

وقول البرعي:

فلم سفكتم دمي ودمعي أما على القاتل الضمان[١٨٩]

فكلمة الضمان مصطلح فقهي يرد في أحكام الديات .

وكما كان للموروث الديني أثره كذلك كان للموروث الأدبي أثره فلا شك أن كلامن الشاعرين قد قرأ لكثير من الشعراء ، فقصيدة البوصيري ذ خر المعاد مطلعها :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول[١٩٠]

عارض بها قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول[١٩١]

وقصيدة البردة:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم [١٩٢]

يبدو من خلالها تأثر البوصيري بقصيدة ابن الفارض:

هل نار ليلى بد ت ليلا بذي سلم أم بارق لاح في الزوراء فالعلم[١٩٣]

وقوله:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم[١٩٤]

(١٨٦) المصدر نفسه :١١٥
(١٨٧) ديوان البوصيري:٢٥٧
(١٨٨) المصدر نفسه:٢٤٥
(١٨٩) ديوان البرعي :٣٥٩
(١٩٠) ديوان البوصيري:٢٢٠
(١٩١) ابي البركات ان الانباري : شرح قصيدة كعب بن زهير :٩٠
(١٩٢) ديوان البوصيري :٢٣٨
(١٩٣) ديوان ابن الفارض: ١٢٨
(١٩٤) ديوان البوصيري :٢٣٩

من قول ابن الفارض:

يا لائما لامني في حبهم سفها كفّ الملام فلو أحببت لم تلم[١٩٥]

وقوله:

وإذا أراد الله حفظ وليّه خرج الهوى من قلبه معزولا[١٩٦]

يذكر ناقول أ بي تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أ تاح لها لسان حسود[١٩٧]

وقول البرعي:

كل من لم ير فرضا حبهم فهو في النار وإن صام وصلى[١٩٨]

فهو من قول الامام الشافعي:

يا آل بيت رسول الله حبّكم فرض من الله في القرآن انزله[١٩٩]

وقوله :

مبارك الوجه يستسقى الغمام به غوث الأرامل والأيتام والفقرا[٢٠٠]

من قول ابي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[٢٠١]

(١٩٥) ديوان ابن الفارض :١٢٩

(١٩٦) ديوان البوصيري:٢١٧

(١٩٧) عمر فروخ : تاريخ الادب العربي جـ٢ ص٢٥٤

(١٩٨) ديوان البرعي :٢٢٦

(١٩٩) ديوان الامام الشافعي :٤٦

(٢٠٠) ديوان البرعي:١٣١

(٢٠١) سيرة ابن هشام : جـ١ ص٢٧٦

وقوله :

قف بذات السفح من إضم وانشد السارين في الظلم

هل رأوا علما عن العلم أم رأوا سلمى بذي سلم[٢٠٢]

معارضة لقصيدة الشاعر التكريتي:

عج برسم ا لدار فالطلل فالكثيب الفرد فالأثل[٢٠٣]

الخاتمة:

النتائج و التوصيات :

تجلت من خلال البحث وحدة المشاعر والأحاسيس والأفكار والتوجهات والذوق بين أبناء الأمة العربية ،رغم تعدد الأقطار وتباعدالزمان، وقددار الإبداع من قبل الشاعرين حول قطب واحد هو المصطفى صلى الله عليه وسلم واتحدا في مصادرهما ،واختلفا في مدى تعمقهما واستيعابهما لتلك المصادر وكان لشخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم وهي المعجزة في موا هبها وتعدد جوانب العظمة فيها أثره على الشاعرين فاختلفا في الزوايا التى انطلقا منها لمدحه كما اختلف مقدار تركيزهما على تلك الجوانب التى تناولا ها ، كذا لك كان لاختلاف البيئة الثقافية والطبيعية والاجتماعية والسياسية أثرها على الشاعرين ،وانعكاسها على مواجدهما وموضوعات شعرهما وسماته ،اتجه الشاعران إلى الإكثار من ذكر قدر الرسول صلى الله عليه وسلم وأفضليته ،اشترك الشاعران في الرغبة الصادقة با لتقرب إلى الله تعالى ودخول جنته والفوزبالسعادة الأبدية ،اشتركا في الدعاء والتوسل و في الإحساس بالذنب والتقصير ، والتلهف والشوق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر معجزاته ،اختلفا من حيث الكم ؛ فالبرعي يفوق من حيث الكثرة ويعود ذلك الى أنه بدأالمديح في فترة مبكرة من حياته ،كان تركيزهما على الفضائل والشمائل المعنوية أكثر منه على الصفات الجسدية، لوحظ كثرة الدعاء والتوسل في ديوان البرعي حتى لاتكاد تخلو منه قصيدة و كثرة مخاطبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تميز البوصيري بالإكثار من مديح آل البيت حتى لاتكاد تخلو قصيدة من ذكرهم ،كذلك انفرد بمقارعة اليهود والنصارى ، لم يلتزما بنوع واحد من أ نواع المقدمة ،وكان البوصيري أ قل التزاما بالمقدمة من البرعي،أجا د كل من الشاعرين التخلص ،والتزم البرعي بالخاتمة دون البوصيري ،اشتركالشاعران في خاتمة واحدة وهي الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نظم الشاعران بالأوزان المألوفة الطويلة والمتوسطة والقصيرة وكان البسيط أحب الأوزان الى

(٢٠٢) ديوان البرعي :٢٢٧

(٢٠٣) بامخرمة :ثارت ثغر عدن :٣٣٠

البوصيري أما البرعي فيأتي الكامل في مقدمة الاوزان عنده،كذلك وفّق الشاعران في اختيار الأوزان التي تناسب المديح والإنشاد في حلقات الذكر ،وكان للموسيقى الداخلية وحسن اختيار الالفاظ وتناسق الكلمات وانسجامها أثره في جمال الايقاع وبراعة الإبداع ، لم يخل شعرهما من الصور البلاغية والمحسنات كالمقابلة والطباق والتشبيه الذي احتل الصدارة عند البوصيري والاستعارة التتأتي في المقدمة عند البرعي، ترفع شعرهما عن الغرابة والابتذال وامتاز بالفصاحة والجمال ، وغلبت على مديح البوصيري القوة والجزالة وامتاز مديح البر عي با السهولة و العذوبة ،اشترك الشاعران بسعة العلم والاطلاع على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ،وانفرد البوصيري بالاطلاع على الثقافات والأديان السابقة ومثلت الثقافة عند كل من الشاعرين مرجعية ذات أثر واسع في الفاظهما ومعانيهما وصورهما .

إن ما أتى عليه هذا البحث المتواضع لايعد و أن يكون مفاتيح أو رؤوس أقلام ، ويمكن للباحثين وطلاب الدراسات العليا أن ينظروا في إبداع الشاعرين ويتعمقوا ويتوسعوا في دراسته ويتوصلوا الى الكثير من النتائج ، فلا زال هناك الكثير .

المصادر والمراجع :

١- حياء الميت بفضائل آل البيت : الامام السيوطي،تحقيق إبراهيم الرفاعي،مكتبة المهاجر،صنعاء بدون تا ريخ.
٢- الأدب في التراث الصوفي: د/محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة غريب – القاهرة – بدون تاريخ .
٣- الاصابة : ابن حجر العسقلاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت – بدون تاريخ .
٤- الأعلام : الزركلي، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٤ م .
٥- الأغاني : الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر – بدون تاريخ .
٦- الأنوار المحمدية :يوسف بن إسماعيل النبهاني ، طبعة قديمة – بدون تاريخ .
٧- البداية والنهاية: ابن كثير ، بيروت ،دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
٨- البدر الطالع : الشوكاني ، بيروت دار المعرفة – بدون تاريخ .
٩- تاج العروس :مرتضى الزبيدي ، دار الفكر – بدون تاريخ .
١٠- اريخ الأدب العربي : بروكلمان، ترجمة :د/ عبد الحليم النجار ،دار المعارف ، القاهرة – الطبعة الرابعة .
١١- تاريخ الأدب العربي : د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة – ١٩٨٤ م.
١٢- الجامع الصغير : الإمام السيوطي ، دار الفكر – بيروت ، الطبعة الأولى ،١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
١٣- حسن المحاضرة : الإمام السيوطي، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم ،دار إحياء الكتب العربية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ م .

١٤- حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول : عبد الله الحبشي، منشورات ،وزارة الإعلام والثقافة صنعاء ،الطبعة الثانية ١٩٨٠ م .
١٥- خزانة الأدب : ابن حجة الحموي، دار ومكتبة الهلال ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م
١٦- دلائل النبوة : للحا فظ أبي نعيم الأصبهاني ،دار النفا ئس – بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٦- ١٩٨٦ م.
١٧- الدليل الشافي على المنهل الصافي : ابن تغري بردي ،تحقيق : فهيم محمد شلتوت ،مركز البحث العلمي وإحياء التراث ، جامعة أم القرى ، بدون تاريخ .
١٨- ديوان حسان ابن ثابت : شرح عبد الر حمن البرقوقي ، دار الأندلس ، بيروت ، بدون تاريخ .
١٩- ديوان عبد الرحيم البرعي ، مركز عبادي للدراسات والنشر ، صنعاء ،الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.
٢٠- ديوان عمر ابن الفارض ،دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ م.
٢١- ديوان كعب بن زهير – شرح العليري ،وزارة الثقافة ،القاهرة ، ١٩٦٥ م.
٢٢- ديوان محمد بن سعيد البوصيري ، تحقيق :محمد سيد كيلاني ،مكتبة :البابي الحلبي ،مصر الطبعة الثانية ،١٩٧٠ م.
٢٣- رياض الصالحين : الإمام النووي،مكتبة النهضة ، مكة المكرمة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥ م.
٢٤- السيرة النبوية : ابن هشام، تحقيق : د/ أحمد مجازي السقا ، القاهرة ، دار التراث العربي للطباعة والنشر ،١٩٧٩ م.
٢٥- الشعر وطوابعه الشعبية : د/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٢٦- صحيح مسلم : الإمام مسلم بشرح النووي ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ .
٢٧- طبقات الشاذلية :الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ،٢٠٠١ م.
٢٨- طبقات صلحاء اليمن : عبد الوهاب عبد الرحمن البريهي ، تحقيق :عبد الله محمد الحبشي ،مركز الدراسات والبحوث اليمني ،صمنعاء ، بدون تاريخ .
٢٩- الطبقات الكبرى : ابن سعد ، دار سعد ، دار صادر ، بيروت ،١٩٨٥ م.
٣٠- العصر الإسلامي: د/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة السادسة ، بدون تاريخ .
٣١- عصر الدول والإمارات :د/ شوقي ضيف ،دار المعارف ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .
٣٢- العصر العباسي :د/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الطبعة الثانية ، بدون تاريخ.
٣٣- العمدة في صناعة الشعر ونقده: ابن رشيق، تحقيق :محمد محي الدين عبد الحميد ، دارالجيل بيروت ، بدون تاريخ .
٣٤- الغيث المسجم ، في شرح لا مية العجم :الصفدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ،١٩٧٥ م .
٣٥- فتح الباري : الحافظ ابن حجر العسقلاني ،تحقيق :عبد العزيز بن يارا ، دار الفكر ، بيروت بدون تاريخ .

٣٦- قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم :د/ وليد قصاب ، دار العلوم ، الرياض ، الطبعة الأولى .
٣٧- اللزوميات : لأبي العلاء المعري ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ م.
٣٨- فصول في الشعر ونقده : د/ شوقي ضيف ،- المدائح النبوية ،د. محمود علي مكي ، الشركة المصرية العالمية للنشر ،القاهرة ،الطبعة الأولى ،١٩٩١ م.
٣٩- المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري ، د/ مخيمرصالح ،دار ومكتبة الهلال – بيروت الطبعة الأولى ،١٩٨٦ م.
٤٠- المدائح النبوية حتى نها ية العصر المملوكي : د/ محمود سالم محمد ، دار الفكر المعاصر دمشق- الطبعة الألى ، ١٩٩٦ م.
٤١- المدائح النبوية في الأدب العربي : د. زكي مبارك، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٣٥ م.
٤٢- مديح الرسول في فجر الإسلام : د/ صلاح عيد دار المعرفة ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٤٣- مروان ابن ابي حفصة وشعرة: قحطان رشيد التميمي ، مطبعة النعمان ،النجف الأشرف ،١٩٧٢ م.
٤٤- معجم البلدان : ياقوت الحموي ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٩ م.
٤٥- معجم البلدان والقبائل اليمنية : إبراهيم المقحفي ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٩٨٥ م.
٤٦- المقدمة : ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٤ م.
٤٧- المنح المكية شرح الهمزية : ابن حجر الهيتمي ، دار المنهاج ، جدة ، الطبعة الثانية ٢٠٠٥ م.
٤٨- موسيقى الشعر : د/ حسني عبد الجليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م.
٤٩- النقد ا"لأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال ، دار العودة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٧ م.
٥٠- نقد الشعر : قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية بيروت ، بدون تاريخ .
٥١- الوافي بالوفيات : الصفدي ، المعهد الألماني للدراسات الشرقية ، بيروت ١٩٨٠ م.